بهاء الدين قراقوش

الوزير المفترى عليه

د/ عفاف سيد صبره

ذكر العماد الأصفهاني[1] :

«قال السلطان صلاح الدين : ما أرى لكفاية الأمر المهم، وكف الخطب الملم، غير الشهم، الماضي السهم، والمضيء الفهم، الهمام المجرب، النقاب المجرب، المهذب اللوذعي، المرجّبُ الألمعي الراجح الرأي، الناجح السعي، الكافي، الكافل بتذليل الجوامح، وتعديل الجوانح، وهو الثبت الذي لايتزلزل، والطود الذي لا يتخلخل (بهاء الدين قراقوش، الذي يكفل جأشه بما لاتكفل به الجيوش)».

حفل التاريخ بأسماء وشخصيات عديدة لعب كل منها دوره خلال الفترة التي عاش فيها، أثر فيها وتأثر بها.

واختلفت هذه الشخصيات باختلاف الأدوار التي رسمتها وعاشتها وخطتها بأيديها وحفرتها على صفحات التاريخ. وقد اكتسبت بعض الشخصيات شهرة وصفة معينة لازمت كلا منها طوال التاريخ وربما تكون هذه الشهرة والصفة نوعاً من الافتراء.. كان سببه أن بعض المعاصرين لهذه الشخصية، أو من خلفها حقدوا عليها، او أساءوا تفسير الدور الذي قامت به، أو تجاهلوا حقائق هامة تكون قد دفعت هذه الشخصية إلى اكتساب هذه الصفات التي اشتهرت بها.

ومن بين صفحات التاريخ تطل علينا شخصية «بهاء الدين قراقوش الأمير الذي خدم طوال عصر صلاح الدين الأيوبي، وأبنائه ولعب دوراً سياسياً وعسكرياً وإنشائياً في عصر الدولة الأيوبية في مصر والشام.

ذاع في التاريخ عن بهاء الدين قراقوش، صفة الاستبداد والطغيان والشدة، ونسبت إليه أعمال غريبة لم يفعلها، بل وضعت عليه، حتى أن الأمثال ضربت بالفترة التي حكم فيها مصر وأصبح المثل العامي «حكم قراقوش» يضرب للتدليل على القهر، والظلم والطغيان.

وقبل أن نعقد المحكمة لنقدم الأدلة والبراهين ونسمع أدلة الدفاع والهجوم، لا بد أن نعرف بهذه الشخصية، وبدايتها في سجل التاريخ الإسلامي.

هو أبو سعيد قراقوش بن عبدالله الأسدي الملقب ببهاء الدين [٢]. ولعل نعته بالأسدي يرجع إلى نسبته إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي، فقد عرف جنده بالجند الأسدية وبلغ عددهم وفق رواية أبو شامة خمسمائة مملوك [٣]. ولقد أصبح بعد ذلك تابعاً للجند «الصلاحي» عندما انتقل إلى خدمة السلطان صلاح الدين، ومن هؤلاء الجند تكونت النواة الأولى لجند الحلقة ذات الشهرة الكبيرة في التاريخ [٤].

يرجح أن قراقوش كان رومي الأصل لأنه نعت بالرومي [٥]. كما نعت أيضاً بأنه خصي أبيض، لذلك فقد كان من رتبة طبقة الخصيان في الدولة الأيوبية، وربما يكون من أسرى الحروب أو مملوكاً .. لأن .. معظم التراجم صمتت عن ذكر شيء عن أصله، ونسبه .. ولم تذكر غير اسمه فقط، فهو إذن من الشخصيات التي ظهرت في العصر الأيوبي، وبرزت بمهاراتها الفردية فقط.

ولعل تركيز جميع المصادر على أنه من طبقة الخصيان سيكون له أكبر الأثر في مساعدتنا على الدفاع عنه ضد ما صدر ضده من كتابات صنعها عنه معاصروه مثل الأسعد بن مماتي[٦] فيا كتبه عنه من تهم وأباطيل «أسماها الفاشوش في أحكام قراقوش»[٧] إلا أنني بالبحث وجدت هذا المخطوط مكتوباً بنفس العنوان بخط العلامة جلال الدين السيوطي، ولم يشر السيوطي إلى أنه أخذ معلوماته عن كتابات ابن مماتي، فربما قد أخذ منه ولم يشر إليه.

وقد أجمع المؤرخون على أن صلاح الدين أعتق قراقوش[٨] .. واختاره من بين الجنود الأسدية ليكون تابعاً له ومن أخص جنوده.

وهناك رأي آخر انفرد به أبو المحاسن بن تغرى بردي، وهو أن قراقوش كان .. أصلاً من خدام العاضد، وهذا الرأي لم نجد له ما يؤيده في بقية المصادر الإسلامية الأخرى، وإنما ذكره الجميع على أنه من رجال أسد الدين شيركوه[٩])

والرأي الثاني إنفرد به أبو شامة في ذيل الروضتين، وفيه يذكر أنه لم يكن مملوكاً لأسد الدين شيركوه، وإنما كان لابن الطقطقي، إلا أنه صحب أسد الدين أو تقدم عنده بعد وفاة سيده[١٠].

وإذا كانت هناك إختلافات في تحديد أصله إلا أن هذا لا يعنينا كثيراً في طبيعة بحثنا، فالذي نريد إثباته هو الدور الذي لعبه أثناء ولاية صلاح الدين وأبنائه على مصر والشام وهل كان لذلك أثر على ما اشتهر عن قراقوش في التاريخ أم لا.

فالمعروف أن أسد الدين شيركوه قد أتى إلى مصر ممثلاً لنور الدين في وقت كانت الدولة الفاطمية في دور الإحتضار، واكتنفتها مشاكل سياسية عديدة، وكثرة إغتيالات بين الوزراء حتى قام أحدهم وهو شاور الذي تقلد منصب الوزارة بعد أن كان حاكماً على الصعيد بالإلتجاء إلى نور الدين لمساعدته ضد منافسه ضرغام الذي نجح في طرده من منصبه وتولى الوزارة بدلاً منه في ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م[١١].

وقد حدث تسابق بين قوات نور الدين وقوات الصليبيين من أجل الإستيلاء على مصر، إلا أن شيركوه نجح في القضاء على الحملات الصليبية التي تزعمها عموري ملك بيت المقدس[١٢] مما أدى إلى قيام الخليفة العاضد الفاطمي بتقليده خلعة الوزارة ولقب بالملك المنصور في ربيع الآخرة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م[١٣].

وقد اجتمع أعيان مصر، وطالبوا بقتل شاور، إلا أن شيركوه نهى رجاله عن قتل شاور، فأجابوه إلى ذلك في الظاهر، أما في السر فقد عزموا على قتله، وقد قبض رجال شيركوه على شاور ولم يقتلوه، وإنما أرسلوه إلى الخليفة العاضد فأمر بقتله وإنفاذ رأسه إليه[١٤].

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور في ربيع ٥٦٤/ يناير ١١٦٩م واستمر أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي إلا أنه لم يمكث في الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام[١٥].

وضح لنا في هذه الآونة دور بهاء الدين قراقوش، فإنه ما أن توفي أسد الدين شيركوه حتى أصر الخليفة العاضد على إختيار صلاح الدين للوزارة[١٦] ولما امتنع ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة وربما ظن العاضد الفاطمي أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة في يد الخليفة يستعين به في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر، وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعاً[١٧].

إلا أن هناك من الآراء التي أوردها المؤرخون المسلمون وهي أن شيركوه قد أوصى بالوزارة لابن أخيه[١٨]، ولكن ليس هناك أدلة نستطيع أن نقيمها على ذلك، وكل ما يهمنا أن صلاح الدين تعرض في هذه الآونة لموقف مضاد، وقفه منه بعض أمراء الجيش النوري من الترك، فقد كرهوا تعيينه وزيراً لأنه كردي ليس منهم[١٩] وبعد وفاة شيركوه قام فريق من الأمراء الذين ينتمون إلى شيركوه، ونازعوا صلاح الدين السلطان، ومنهم شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال وكل واحد من هؤلاء يخطب الوزارة، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، ولم يلبث الحارمي أن أقر صلاح الدين على الوزارة.

وهنا برز دور بهاء الدين قراقوش الذي تحالف مع الفقيه عيسى الهكاري[٢٠] وقررا مساندة صلاح الدين حتى يتولى الوزارة، «ودققا الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول»[٢١] فتوجه عيسى الهكاري إلى المشطوب حتى أماله إليه. وقال إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وعزه وملكه لك .. وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك أيضاً، فمال إليه أيضاً، ثم فعل هذا مع الباقين وكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي قال وأنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام»[٢٢].

وبذلك نرى أن تعيين صلاح الدين الأيوبي في منصب الوزارة. كان أول حدث لاحت فيه شخصية بهاء الدين قراقوش، ومن هذا التاريخ بدأ نجمه يسطع، فقد لفت نظر صلاح الدين لما له من قوة، وشخصية ودهاء، لذلك أصبح هو الساعد الأول في هذه الدولة الصلاحية التي بناها في مصر، ثم الشام فيما بعد.

ولا أدل على ذلك من أنه بمجرد أن تولى صلاح الدين الوزارة في حياة الخليفة العاضد الفاطمي حتى قام بعزل جميع عمال وخدام القصر الفاطمي، وجعل تدبير أمور القصر لبهاء الدين قراقوش حتى يكون عيناً على الخليفة العاضد[٢٣]. حتى أن ابن خلكان يقول إنه اعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه[٢٤]...

ويرجع سبب تعيين صلاح الدين لقراقوش إلى أن البلاط الفاطمي في ذلك الوقت كان مركزاً لكثير من الفتن والمؤامرات، ولا يحجم رجاله عن الاستعانة بالأعداء في سبيل تحقيق مصالح خاصة ومؤقتة، لذلك استاء الرئيس السابق لبلاط الخليفة العاضد وكان خصياً نوبياً اسمه جوهر مؤتمن الخلافة ــ من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته..ووطأة قراقوش على القصر، فدبر مؤامرة للخلاص منه، وحاول أن يتصل بعموري ملك بيت المقدس للحصول على مساعدته، لكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عموري وقعت في يد صلاح الدين[٢٥] الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره، ويقضي على أية محاولة للعودة إلى سياسة ضرغام وشاور، فتتل مؤتمن الخلافة فوراً سنة ٥٦٤هـ[٢٦].

أبعد صلاح الدين الخدم الخصيان عن قصر الخلافة، وجعل الأمر كله في يد بهاء الدين قراقوش الذي حزم الأمور وضبطها داخل القصر أما في الخارج فقد تولى توران شاه أخو صلاح الدين مهمة مجابهة الجند السودانيين الذين أثارهم ما فعله صلاح الدين فيهم فقاموا بثورة كبيرة في الفسطاط بعد أن تجمعوا، فبلغ عددهم خمسين ألفاً، ووقعت وقائع دامية في شوارع القاهرة، خاصة بين القصرين، وكانت لهم منزلة عظيمة قرب باب زويلة فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيهم فدمر أموالهم وشرد أولادهم.

ولعل هذه الحارة التي كانت للسودانيين، كانت تعرف في البداية باسم حارة الريحانية والوزيرية، وهما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين، إلا أنه بعد القضاء على فتنة السودانيين أمر صلاح الدين بهاء الدين قراقوش أن يسكنها، ويذكر المقريزي أنه «بعد موت

الخليفة العاضد لدين الله، سكن هذه الحارة الأمير الطواشي الخصي بهاء الدين قراقوش بن عبدالله فعرفت هذه الحارة باسم حارة بهاء الدين»[٢٧].

إرتفعت مكانة بهاء الدين قراقوش ورتبته عند صلاح الدين، وأصبح مهيمناً على قصر الخليفة الفاطمي .. له الحل والعقد فيه.

وإذا كان صلاح الدين قد أسند هذا المنصب إلى قراقوش في وقت كانت البلاد فيه على شفا جرف هار، فعنى ذلك أنه تمتع بصفات قل أن توجد في نظير مثله، وأن هذه الصفات هي المطلوبة لضبط الأمور في مثل هذه الظروف المضطربة .. أولاً .. فالخلافة الفاطمية صدمت في آمالها في صلاح الدين الذي ما كاد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة العاضد الفاطمي، فشرع في استمالة الناس إليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها «فمال الناس إليه وأحبوه»[٢٨].. ثانياً .. ثورات الشيعة التي تغلي في قلب البلاد، إلى جانب المتشيعين الذين حرموا المميزات التي تمتعوا بها في أوقات الفوضى في البلاد. لذلك فقد كان إختيار قراقوش إختياراً موفقاً، بدليل أن الأمور ضبطت في البلاد وسيطر صلاح الدين على قصر الخلافة، ويتضح لنا ذلك من الأحداث التي حدثت فيما بعد، إذ مالبثت أن تدهورت أحوال الخليفة العاضد وسقطت الخلافة الفاطمية الشيعية وحل اسم الخليفة العباسي المستضيء محل اسم الخليفة الفاطمي سنة ٥٦٧هـ .. ويقال أن الخليفة الفاطمي العاضد توفي بعد ذلك الإنقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر بإخفاء الخبر عنه، وبعد ذلك إتخذ عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر[٢٩].

ولعل وجود شخصية مثل قراقوش خلال هذه الفترة .. أعني فترة سقوط الخلافة الفاطمية، وضبطه لقصر الخلافة .. جعل معظم المؤرخين المسلمين يقررون أن الأمور استقرت بصورة غير عادية حتى أن ابن الأثير يقول إنه «لم ينتطح فيها عنزان»[٣٠] فإن لم يكن قراقوش قد أحكم سيطرته على من فيه، لكان هناك تطور آخر للأحداث، خاصة وأن هناك كثيراً من المتنفعين بالنظام الفاطمي القائم، وبما هو عليه من ضعف، وقد وضح لنا هذا في نهاية العصر الفاطمي الذي كان يسير من سيىء إلى أسوأ بسبب تولي مقاليد الأمور فيها خلفاء ضعاف الشخصية سلموا أمورهم إلى وزراء عرفوا بسياسة الاستبداد وحب البقاء.

وقد جلس صلاح الدين للعزاء في الخليفة العاضد واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه «فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد[٣١]. وقد حمل جميع ما فيه إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يكاد يخرج عن الإحصاء، ففيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلوا الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم»[٣٢]، وقدكانت هذه الثروة الضخمة التي حملها قراقوش إلى صلاح الدين سبباً في قيامه بالمشروعات الضخمة التي سنوردها فيما بعد، وكذلك بالحملات التي خرجت من مصر لفتح النوبة، وبلاد اليمن وللقضاء على الصليبيين في بلاد الشام.

دور قراقوش في مصر على عهد

صلاح الدين الأيوبي

وضح لنا من خلال البحث أن إعتماد صلاح الدين على بهاء الدين قراقوش لم يكن لضبط الأمور في مصر فقط، وإنما اعتمد عليه إعتماداً كبيراً في تنفيذ جميع المشروعات الحربية التي قرر إقامتها في مصر من أجل غرض واحد هو الوقوف أمام العدوان الصليبي والقضاء عليه نهائياً.

لم يكن هذا فقط هو دور قراقوش بل إنه لثقة صلاح الدين فيه كان «ينوب عنه بالديار المصرية»[٣٣] فقد تولى حكم مصر في فترة غياب صلاح الدين وهذا ما سنتعرض له تفصيلياً فيما بعد، كما أن دور بهاء الدين لم يقف عند هذا الحد بل إنه شارك في الجهاد ضد الصليبيين خاصة عندما هاجمت القوات الصليبية مصر سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[٣٤].

ولبهاء الدين قراقوش دور هام خلال الحملة الصليبية الثالثة التي هاجمت عكا في وقت كان الوالي عليها من قبل صلاح الدين هو بهاء الدين قراقوش[٣٥]. كما أنه كان لبهاء الدين في عكا نفس الدور الإنشائي الذي كان له في مصر. وقد عرف عن قراقوش أنه أنشأ أسبلة وأربطة في مصر لخدمة أهلها، ولا ننسى في هذه العجالة أن نبين أنه كان سفيراً لصلاح الدين إلى بلاد اليمن في مهمة عسكرية[٣٦].

وإن كنت قد أجملت في عجالة هذه المآثر الهامة لقراقوش فإن هذا المجمل جعلته مقدمة

لتفصيل كبير حتى نستطيع أن نحقق الغرض الأساسي من هذا البحث .. وهو رفع التهم الملصقة بهذا الوزير العملاق، ونعطيه حقه الضائع في التاريخ.

وقبل أن أبدأ في التفصيل أريد أن أقدم دلائل الإتهامات التي كالها عليه معاصروه، حتى أصبح تاريخ قراقوش كما أوضحت صورة للطغيان والاستبداد، بل ولنقصان العقل.

وقد جمع لنا التراث الإسلامي مخطوطاً، كتب المؤرخون أن مؤلفه الأسعد بن مماتي كاتب الدواوين، وهو معاصر لبهاء الدين قراقوش، إلا أن ما وجدناه تحت هذا المخطوط هو ما جمعه العلامة جلال الدين السيوطي، عندما كان يجلس للدرس في الجامع الطولوني في مصر عام تسع وتسعين وثمانمائة، وسأله الحاضرون أن يحكي لهم بعض الحكايات المضحكة عن قراقوش، وهل لها أصل أم لا. فبدأ السيوطي يذكر للحاضرين أنه نقل أخباره عن أبي المحاسن بن تغري بردي الذي ذكر أن وزير صلاح الدين بمصر هو بهاء الدين قراقوش، وأنه صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة في الجامع الحاكمي[٣٧]. وقد علق أبو المحاسن على شخصية قراقوش بأنه كان رجلاً صالحاً غلب عليه الإنقياد للخير، وإلى هنا والرأي صواب وسليم، ويؤكد لنا أن صلاح الدين لا يمكن أن يختار من ينوب عنه إلا إذا كان ثقة هماماً.

إلا أن ما ذكره السيوطي على أنه من رواية أبي المحاسن فيه تناقض كبير حيث يقول «إن السلطان كان يعلم عنه عدم الفطنة والنباهة وكان إذا سافر من مصر إلى الشام في زمان الربيع ـ كما هي عادته في كل سنة ـ يفوض إليه أمرها مع مشاركة بعض أولاده[٣٨]».

ونحن نتساءل كيف يفوض صلاح الدين أمر المملكة الأيوبية التي أجهد نفسه في سبيل إقامتها وجمعها في إطار الوحدة الإسلامية وبذل النفس والمال من أجل القضاء على النظام الشيعي، كيف يفوض أمرها لشخصية عرف عنها عدم الفطنة والنباهة؟؟.

ويعود السيوطي إلى الخطأ مرة أخرى عندما يؤكد أن الأخبار التي سيوردها عن قراقوش حدثت عندما تولى أمر مصر منفرداً بعد سفر صلاح الدين عام ٥٦١هـ، في حين أنه في هذا التاريخ لم يكن صلاح الدين وشيركوه قد استوليا على مصر، بل كانا قد قدما إليها لأول مرة سنة ٥٥٩هـ، وهذا يؤكد أن السيوطي لم يراع الدقة في نقل الأخبار عن قراقوش.

من أهم ما ورد في «الفاشوش من نوادر عن قراقوش» يتضح منها سطحية كاتبها، ومؤلفها،

وأنها موضوعة عليه لأنها موضوعات ليست ذات أهمية، ولا تمثل شيئاً بالنسبة لموقفه مع أهل البلاد أو استبداده الذي اشتهر به، بل إن فيه من المغالطات ما سنوضحها. منها «أنه نشر قميصه فوقع من أعلى الجبل فتصدق بألف درهم. وقال لوكنت لابسه لتكسرت»[٣٩] ومنها «أنه كان في كل سنة يتصدق بمال جزيل، فلما انتهت الصدقة أتت إليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له فقال أما الصدقة السنة فنفدت ولكن إذا كانت السنة التالية فتعالي نرسم لك بكفن إن شاء الله تعالى»[٤٠]، ومنها «أنه طار له باز فقال للبوابين اقفلوا باب النصر، وباب زويلة، فإن الباز لن يجد له موضعاً يطير فيه»[٤١]. ومنها «أن امرأة شكت له ولدها وأنه يخالفها فحبسه وحلف بأنه لن يطلقه إلا بعد سنة، فلما توجهت المرأة إلى بيتها عسر عليها ولدها، فجاءت ذات يوم للحاشية وسألت إطلاقه، ودفعت لهم بعض المال، فقالوا لها أكتبي قصته وأنهي فيها أن السنة فرغت، ونحن نساعدك. ففعلت ذلك، فلما قرأه قال: لا تكذبي .. فبقي من السنة اليوم خاصة وفي غد نطلقه إن شاء الله تعالى. فقالت الأمر أمركم، وخرجت على ذلك»[٤٢].

والحقيقة أن معظم ما وضع على قراقوش في هذا السجل أشياء تافهة لا تبين شخصية قراقوش، وواضح أن من وضعها أراد المزاح وليس الجد. ومما يؤكد أنها موضوعة عليه أننا قد ثبت لنا من جميع المصادر الإسلامية أنه كان «خصي» ومع ذلك يبين لنا الفاشوش أن له إبناً .. فيقول «إن ولده اشترى لنفسه بغلاً بألف درهم وعرضه عليه، وقال هذا غالي فرآه بعض المباشرين فعلم منه أن عرضه وقع فيه فدخل معه لأبيه فقال يا خوند لأي شيء رسمتم برد هذا البغل، فقال لأنه غالي بألف درهم فقال يا مولانا اشترينا بتسعة وتسعين فقال إن كان هكذا فما هو غالي»[٤٣].

ولقد تغالى واضعو الفاشوش على قراقوش في أقوال فيها خدش للحياء العام، وكما وضح وأثبتناه فهو خصي، ولا شك أن كل ذلك موضوع عليه، وأقوال ملفقة أردت أن أوردها قبل تفصيل أعمال قراقوش الجليلة التي أوجزتها من قبل، حتى أترك للقارىء إصدار الحكم، وإثبات أن هذا الوزير حقاً مفترى عليه.

لقد ذكرنا أن أول عمل أسنده صلاح الدين إلى قراقوش هو تعيينه على قصور الخليفة العاضد بعد وفاته[٤٤].

وربما يكون هذا التعيين قد سبب الضيق للأمراء النوريين أمثال عين الدولة الياروقي، وعز

الدولة جردبك وغيرهما ممن لم تعجبهم سياسة صلاح الدين هذه، وأثاروا نور الدين ضده[٤٥] فقد رأوا أنه بذلك قد تحكم في خيرات مصر، ولم يخصص شيئاً منها لبلاد الشام، حتى اضطر نور الدين إلى أن يرسل مبعوثاً من قبله. وهو الموفق بن خالد القيسراني إلى صلاح الدين ليطلع على الأمور، ويطالبه بحساب ما أخذه من قصور الخليفة الفاطمي ودواوين الدولة الفاطمية» وتقرير القطيعة على صلاح الدين في كل سنة»[٤٦].

والمعروف تاريخياً أن صلاح الدين أنفق الأموال هذه التي جمعها قراقوش في إنشاء المدارس التي تقاوم المذهب الشيعي وتحيي المذهب السني وأولهما المدرسة الناصرية التي حلت محل دار المعونة التي كان يحبس بها الفاطميون من يريدون حبسه، فهدمها وبنى هذه المدرسة للشافعية سنة ٥٦٦هـ[٤٧].

أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية وقد عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذي كانت تحصل عليه من الوقف الذي وقفه عليها صلاح الدين[٤٨].

ولم تكن هاتين المدرستين هما الوحيدتين اللتين أنفق عليها وعلى طلبتهما الأموال وإنما هناك مدارس عديدة، هذا إلى جانب المنشآت الحربية العديدة التي اضطلع صلاح الدين بإنشائها في مصر وسيناء وبلاد الشام، وكذلك المنشآت الزراعية..

إلى غير ذلك من التحصينات الحربية التي احتاجت إلى أموال كثيرة، دفعت قراقوش إلى أن يحكم السيطرة على الأموال لتنفق في هذه المجالات، حتى أن أحد المؤرخين المحدثين أطلق عليه لقب «وزير أشغال صلاح الدين»[٤٩].

ومن أهم المنشآت المعمارية الحربية التي عهد صلاح الدين إلى قراقوش بتنفيذها الأسوار والقلاع في مصر والشام.

ولعل السبب الذي حدا بصلاح الدين إلى التفكير في المنشآت الحربية أنه فكر في بناء أسوار القاهرة من عام ٥٦٦هـ، غير أنه أجبر في هذه الفترة إلى أن يتوقف عن هذا العمل قليلاً إلى ما هو أهم وأخطر، فقد كان الأمر يحتم عليه أن يبدأ ببناء القلعة، إذ كان قد فكر منذ هذه السنة في حماية نفسه شخصياً، إذ لم يكن قد أصبح بعد آمناً على نفسه مما يخبئه له القدر من أخطار ومتاعب[٥٠]. فقد رأى بلاد الشام وقد أصبحت كظهر القنفذة من كثرة ما أقامه بها الصليبيون

والإسماعيلية من القلاع والحصون، وفي الشام ولدى الإسماعيلية على وجه الخصوص لمس بما له من خبرة شخصية مدى أهمية القلاع ومن ثم فقد عاد منها إلى مصر وهو صادق النية على أن يشيد مثل هذه القلاع[٥١].

وقبل أن ندخل في تفاصيل بناء القلعة التي ارتبطت باسم قراقوش وسميت «قلعة قراقوش» سنبدأ أولاً بسور القاهرة[٥٢] الذي قرر صلاح الدين عمارته، حتى أن أبا شامة يذكر «أنه في هذه السنة ـ ٥٦٦هـ شرع .. السلطان ـ صلاح الدين ـ في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدم أكثره، وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً وولاه قراقوش الخادم»[٥٣].

وقد استمر البناء بالسور حتى توفي صلاح الدين وهو «السور الموجود الآن، وجعل فيه عدة أبواب منها باب البحر، وباب الشعرية، وباب البرقية، وباب المحروق»[٥٤].

ويذكر المقريزي عن هذا السور أنه ابتدأ في عمارته السلطان صلاح الدين سنة ست وستين وخمسمائة وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله[٥٥]، فلما كانت سنة تسع وستين واستولى على المملكة إنتدب بهاء الدين قراقوش الأسدي فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن، وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سوراً واحداً، فزاد في سور القاهرة القطعة التي من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومن باب الشعرية إلى باب البحر وبنى قلعة المقس[٥٦] وهي برج كبير وصله على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك، وكان في أصله مد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر «الفسطاط» وزاد في سور القاهرة قطعه مما يلي باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل، فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوه تحت القلعة لموته وإلى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيا بين آخر السور إلى جهة القلعة، وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر»[٥٧].

ويذكر الأستاذ كازانوفا أن صلاح الدين لم يكن يقصد في سنة ٥٦٦هـ سوى عمارة السور الذي أصبح على حالة سيئة، ومن جهة أخرى فإن كلمة عمارة تعني في غالب الأحيان القيام بعملية ترميم البناء وتجديده[٥٨].

وقد كشفت حفائر متحف الفن الإسلامي التي أجريت بالفسطاط من ١٩١٢ إلى ١٩٢٠م عن القسم الشرقي القائم من سور صلاح الدين بين القلعة وحدود الفسطاط من الجهة الجنوبية.

من دراسة هذا الجزء من سور صلاح الدين بالفسطاط يظهر أنه في الوقت الذي بدأ فيه قراقوش العمل في السور كانت الفسطاط على ما انتابها من خراب لاتزال مدينة تجارية وصناعية حتى اختار صلاح الدين سوره في هذا الموقع لحماية المدينة من الهجوم المفاجيء كأحسن حل وأيسره إقتصادياً تخفيفاً للمتاعب الحربية، فأقيم السور في هذه الناحية فوق جدران المنازل المتخربة والتلال المرتفعة لذلك خرج السور الشرقي لصلاح الدين بالفسطاط كثيراً عن استقامته وظهر فيه الاعوجاج والازورار[٥٩].

وفي الناحية الشمالية والشرقية من سور صلاح الدين حفر قراقوش، خندقاً شرع في حفره من باب الفتوح إلى المقس في المحرم سنة ٥٨٨هـ وكان أيضاً من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده، «وشاهدت آثار الخندق باقية، ومن ورائه سور بابراج له عرض كبير مبني بالحجارة إلا أن الخندق أنطم، وتهدمت هذه الأسوار التي كانت وراءه»[٦٠].

وهذا السور هو الذي ذكره القاضي الفاضل في كتابه إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فقال «والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهما رواقه، فما عقيله ماكان معصمها ليترك بغير سوار ولا حضرها ليتجلى بغير منطقة نضار، والآن وقد استقرت خواطر الناس، وأمنوا به من يد تتخطف ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف»[٦١].

وبعد دراستنا لهذا العمل المعماري الحربي الهام الذي شيده بهاء الدين قراقوش، وبينا مدى أهميته الدفاعية، يتضح لنا أن قراقوش أصبح هو المهندس المعماري التنفيذي لجميع التحصينات الدفاعية التي اهتم بها صلاح الدين.

وقد ثبت لنا أيضاً أن صلاح الدين بدأ منذ سنة ٥٦٦ في ترميم الأسوار القائمة وعمارتها، إلا أنه بعد أن قام بحملته على بلاد الشام عدل خطته في تحصين القاهرة فبدأ من عام ٥٧٢ التنفيذ الفعلي لبناء أسوار جديدة على يد قراقوش[٦٢] لأن ترميم صلاح الدين للسور سنة ٥٦٦هـ كان يتمشى مع مكانته المتواضعة وقتذاك كوزير للخليفة الفاطمي، أما ذلك المشروع الضخم الذي أوضحنا مدى ضخامته، فلا يمكن تنفيذه إلا على يد رجل قوي تكون قد استقرت له الأمور ودان له الجميع بالطاعة والولاء، ولم يكن صلاح الدين هذا الرجل القوي إلا في عام ٥٧٢هـ بعد أن أصبح سلطاناً على مصر والشام كما أن تنفيذ هذا المشروع كان يحتاج إلى وقت طويل وإلى جهد كبير لذلك لم يقدر لصلاح الدين أن يشهد نهايته.

وهناك برج بناء قراقوش، عرف باسم قلعة قراقوش[٦٣]، ويؤكد المقريزي أن قراقوش قد هدم جامع المقس ليبني مكانه البرج الذي عرف باسمه غير أن هذا الجامع أعيد بناؤه فيا بعد، ولقد كان هذا البرج بمثابة الزاوية الغربية بالسور الشمالي[٦٤]. وقد اهتموا ببناء الأبراج المنيعة لتحصين السور، وكان بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين، ويتكون البرج من قبو نصف دائري إلى ستار الحائط بمزاغل تستخدم لرمي العدو المهاجم بالسهام منها أو إلقاء المواد الكاوية أو الزيت المغلي[٦٥].

هذه هي العمليات الإنشائية الأولى التي قام بها قراقوش مفوضاً من صلاح الدين، إلا أن العمل الآخر الذي فاقه قوة كان تشييده لقلعة الجبل.

ويعرّف المقريزي في خططه نقلاً عن ابن سيده في كتابه «المحكم» القلعة بتحريك القاف، واللام والعين وفتحها: الحصن الممتنع في جبل، وجمعها قلاع، وقلع وأقلعوا بهذه البلاد بنوها فجعلوها كالقلعة وقيل القلعة بسكون اللام حصن مشرف وجمعه قلاع[٦٦].

والحقيقة أن صلاح الدين في هذه الآونة توالت عليه أحداث كبيرة جعلته يتحول إلى مشروع أكبر يحتاج إلى زمن أطول وأموال أوفر، ويتفق مع مركزه بعد أن أصبح سلطاناً هماماً مطلق السلطة ومن أهم الأحداث كما ذكرنا القضاء على الدولة الفاطمية ٥٦٧هـ/١١٧١م ثم استيلاؤه بعد ذلك على مملكة سيده نور الدين بالشام والعراق، وقد أفاد صلاح الدين فوائد كثيرة في شئون الحرب التي مارسها في الشام خلال جهاده في سبيل توحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين في الشرق العربي، وأحس صلاح الدين بما طرأ عليه من تغيير أفكاره وخططه الحربية، إذ أدرك وهو بالشام ما قامت به القلاع وخاصة في حلب والكرك من دور فاصل في المعارك الحربية، فقد تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار[٦٧]. إلا أن هناك كتابات مغرضة وضعها بعض المستشرقين على هؤلاء الأبطال المسلمين حاولوا بها أن ينفثوا سمومهم ضد الإسلام والمسلمين، فهناك ما كتبه المؤرخ ستانلي لين بول في كتابه عن صلاح الدين أنه مما دفع صلاح الدين إلى بناء القلعة رغبته في أن تكون حصناً يدافع به عن اسمه وعن مصر إذا اجتاحها سيده نور الدين محمود بن زنكي»[٦٨].

ولكن مما يكذب هذا الرأي أن صلاح الدين لم يشيد قلعة القاهرة إلا بعد وفاة نور الدين بعامين سنة ٥٧٢هـ.

وقبل أن نبدأ كلامنا عن هذه القلعة أحب أن أعرِّف أن أول أمر أصدره صلاح الدين كان أن وكل إلى بهاء الدين قراقوش الأسدي القيام ببنائها[٦٩].

ولولا الثقة الكبيرة التي أولاها صلاح الدين لمولاه قراقوش لما انتدبه لهذا العمل الضخم الذي ركز صلاح الدين عليه كل مخططاته الحربية، فإذا كان الجهاد في الإسلام يتركز في المقام الأول منه على الجنود الذين يحملون السلاح، ويسيرون في المعارك إلا أن ما قام به قراقوش يعتبر جهاداً له أجره وثوابه لأنه عمل لا يراد به إلا وجه الله والوقوف أمام أعداء الله إذا ما فكروا في غزو أراضي الإسلام.

تقع قلعة الجبل على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم وهي تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج، وفي وسط الجدار باب القلعة الذي يعرف باسم الباب الجواني، والجزء الشمالي من القلعة به كان الحصن نفسه، أما الجزء الجنوبي فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اسطبلات وغيرها، ويغلب على الظن أن الجزء الشمالي تم تشييده أيام صلاح الدين نفسه في حين أن الجزء الجنوبي الذي يشمل الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الأيوبي.

وقد سار البناء في القلعة بهمة كبيرة تشهد على مهارة قراقوش الحربية وحزمه.

وفق صلاح الدين في إختيار مكان القلعة إذ أنها بوضعها الحالي حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً، بحيث كانت حاميتها تستطيع أن .. تقوم بعمليتين حربيتين في وقت واحد، وهما إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها عن طاعة السلطان، ومقاومة ما عساه يقع من محاولات .. خارجة للإستيلاء على القاهرة، ولذا لا يمكن الإعتراض على صلاح الدين بأنه أساء إختيار مكان القلعة، لتسلط المقطم عليها، إذ في الواقع لم تكن هناك أسلحة معروفة وقتذاك قادرة على قذف شحناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما وأن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم في قيظ الحر وصعوبة توفير الماء في هذا

المكان، وإذ افترضنا نجاح المهاجمين في الإقتراب من أسوار القلعة فإن الخندق حولها كان يمنع إقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقم المقطم لا تيسر للمهاجمين أن يقوموا بحركات تكتيكية بشيء من الحرية[٧٠].

وإذا كان هذا هو تخطيط القلعة وما حولها، وإن بهاء الدين قراقوش هو الذي قام على التنفيذ، الا يجعلنا هذا الموضوع نتساءل هل كان صلاح الدين هو الذي رسم وخطط القلعة وحدد فكرتها واستراتيجيتها أم أن هذا الشخص الذي قام بدور التنفيذ كان له دور في هذا الموضوع. فإذا أردنا أن نبني عقاراً في يومنا هذا، واشترينا قطعة من الأرض، واخترنا موقعها هل نحن الذين نقوم بعملية التنفيذ ورسم العقار أم أننا نعهد بذلك إلى مختصين، ربما نجد في عملية تنفيذ بناء القلعة أن صلاح الدين كانت له خبرة ودور كبير خاصة لأنه خاض الحروب والمعارك ورأى الحصون والقلاع ومع ذلك فإنني أستبعد أن يكون صلاح الدين وحده صاحب رسم وتخطيط هذه القلعة، وإنما شاركه في ذلك وزيره التنفيذي بهاء الدين قراقوش الذي أخرج هذا التخطيط إلى حيز الوجود.

وقد جلب قراقوش أحجار البناء من بعض أهرامات الجيزة، كما ذكر عبد اللطيف البغدادي وغيره من الرحالة الذين جاءوا بعده[٧١].

وقد سخر قراقوش في بناء القلعة أُلوفاً من أسرى الفرنج قدرهم المقريزي بحوالي «خمسين ألفاً»[٧٢] وقد قام بتدمير بعض الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة ليستخدم حجارتها في البناء[٧٣].

وهناك كتابة منقوشة في لوحة فوق باب المدرج تشهد ببناء القلعة أيام صلاح الدين وعلى يد قراقوش ونص هذا الكتابة ما يلي[٧٤]:

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما.

٢ ـ تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً.

٣ ـ وينصرك الله نصراً عزيزاً[٧٥]. أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة المحروسة القاهرة بالعرمة[٧٦] التي جمعت نفعاً وتحسناً وسعة على من التجأ إلى ظل.

٥ ـ ملكه وتحصنا مولانا الملك الناصر صلاح الدين والدنيا أبو.

٦ ــ المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي.

٧ ــ عهده الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد خليل أمير المؤمنين.

٨ ــ على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبدالله المالكي.

٩ ــ الناصري في سنة تسع وسبعين وخمس مائة.

إن تاريخ هذا النقش يثبت أن القلعة أو على الأقل الجانب الأكبر منها لم يتم بناؤه إلا في عام ٥٧٩هـ[٧٧].

ويؤيد جميع الآراء التي ذكرناها من أن القلعة قد تم بناؤها في هذه الفترة ما ذكره الرحالة ابن جبير الأندلسي الذي قدم إلى القاهرة في أخريات عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م وشاهد بنيان القلعة قال «وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، يمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين «مصر والقاهرة» والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع إمتهاناته ومئونته العظيمة كنشر الرخام، ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر، عجباً من العجائب الباقية مالاثار العلوج والأساري من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم»[٧٨].

لعل نص ابن جبير هذا له وجهان .. الأول أنه وصف القلعة وبنيانها وهو تأكيد للمعلومات التي سبق أن ذكرناها أما الوجه الثاني فهوموضوع إستخدام قراقوش لأسرى الروم، ولعل هذا الموضوع يرجعنا إلى ما ذاع عن جبروت قراقوش وقسوته، هل كان استخدام هؤلاء الأسرى وتسخيرهم في البناء سبباً لانتشار هذه الأخبار عليه أم أن الصرامة والجد الذي اتبعه لسرعة إنفاذ البنيان كان سبباً أو لعل العاملين في مصر لم يعتادوا الجد في العمل بعد فترة الفوضى الطويلة التي عاشوها وتربوا فيها في الفترة الأخيرة من العصر الفاطمي.

إن كان الإفتراض الأول هو سبب هذه الشائعة فما زلت أقول أن قراقوش مفترى عليه .. أولاً لأن أقل شيء يجب أن نلزم به أعداء الدين هو أن نرغمهم على مساعدتنا في أعمالنا الحربية ومنشئاتنا العديدة التي نعدها لصد أعمالهم الدنيئة ضد الإسلام والمسلمين، وهذا قليل على أعداء الله الذين استحبوا الكفر على الإيمان فما ربحت تجارتهم، وهم الذين اعتدوا على أراضينا

وسلبونا إياها، وقتلوا آباءنا وأبناءنا وأخواتنا، كيف نرحمهم؟ إن ما فعله قراقوش في استخدامهم في البناء لا يدل على سخرة وإنما استفادة بقوى بشرية كبيرة كما ذكر ابن جبير «فعددهم لا يحصى» فهذه القوى البشرية ليس علينا فقط أن نطعمها ونسقيها وإنما عليها أن تعمل أيضاً وتقدم خدمات نظير ذلك.

أما إذا كان الإفتراض الثاني، وهو استخدامه للشدة والعنف مع المصريين وغيرهم من الأجناس التي سكنت مصر من أجل إتمام هذا العمل الحربي الهام. أعتقد أنه غير ملام في ذلك لأن أهل البلاد تراخوا وتكاسلوا زمن الفاطميين، ولا أدل على الفوضى التي سادت العالم الإسلامي بأسره في هذه الآونة من أن الصليبيين قد نجحوا في دخول بلادنا واستعمارها، وتأسيس أربع إمارات صليبية كبرى في الرها وأنطاكيا وبيت المقدس وطرابلس، كما شرعوا في الاستيلاء على ما تبقى من معاقل في الشام وأرادوا أيضاً الاستيلاء على مصر، لولا أن الله قدر للإسلام الخير بظهور زعماء حركة الجهاد الإسلامي.

أما عن المبنى الثاني الملحق بالقلعة «فهذه البئر من العجائب التي استنبطها قراقوش»[٧٩].

ويذكر المقريزي نقلاً عن ابن عبد الظاهر، أن هذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر من أعلاها فتنقل الماء في نقالة في وسطها وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها ولها طريق إلى الماء ينزل الماء إلى معينها في مجاز وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء»[٨٠].

وينقل المقريزي عن القاضي شافع بن علي في كتاب عجائب البنيان «أنه ينزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلاثمائة درجة»[٨١].

بعد قراءتنا لنصوص المقريزي نعرف أن قراقوش قام بحفر بئر كبيرة في الصخر سنة ٥٨٣هـ في الساحة الجنوبية من القلعة حيث الملحقات، وتنسب الأساطير الشعبية هذه البئر إلى سيدنا يوسف كما تنسب إلى صلاح الدين «يوسف» بن أيوب. وتعرف هذه البئر باسم الحلزون، وقد أشرف على حفرها كما أوضح المقريزي وغيره من المؤرخين بهاء الدين قراقوش، لتكون مصدراً للماء في القلعة وقت الحصار وتتألف من طابقين عمق الأول نحو خمسين متراً، والآخر نحو أربعين متراً ولكل طابق منها ساقية ترفع الماء منها بواسطة الدواب، ويقال أن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بواسطة سرداب تنفذ منه مياه نهر النيل إلى القلعة[٨٢] وقيل إن ماء البئر كان عذباً

في أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها، فاتصلت بعين مالحة، أفسدت ماء البئر الأمر الذي جعل القلعة تعتمد بعد ذلك على النيل في إمدادها بالماء[٨٣] ومن الملاحظ على هذه البئر التي أنشأها قراقوش أنها لم تحفر في داخل الحصن أي في الساحة الشمالية من القلعة بل حفرها في الملحقات بالمساحة الجنوبية مما يدل ظاهرياً على استراتيجية غير سليمة، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن البئر حفرت بالفعل من داخل أسوار البناء الشمالي، ولكن محمد علي اقتطع جزءاً من الحصن الشمالي بالقلعة وأضافه للمساحة الجنوبية، عندما قام بعمارته المشهورة بالقلعة[٨٤].

وقد أكد الأستاذ كازانوفا على أن هذه البئر تنسب إلى صلاح الدين، وكذب جميع المزاعم الخاطئة التي زعمها بعض الدارسين فقال «إلى صلاح الدين وعهده ينسب حفر هذه البئر وشرف بناء القلعة»[٨٥] واستند كذلك على الرحالة عبداللطيف البغدادي في قوله «من بين عجائب مصر البئر بين القلعة» إلا أنه يورد رأياً وهو أنه من المحتمل أن هذه البئر كانت موجودة من قبل، وضيقه وأن ما قام به قراقوش من عمل هو التوسعة الكبيرة، وتطهيرها مما بها من ألم الروم، وأن تاريخ ذلك بعد عام ٥٨٣هـ أي بعد إنتصار حطين، وتمكن صلاح الدين من إرسال أعداد كبيرة من أسرى الصليبيين من الشام إلى مصر[٨٦] ولم تقتصر أعمال قراقوش أثناء بنائه لقلعة الجبل على هذه المنشآت الحربية فقط، بل قام كذلك ـ كما ذكرنا ببناء خندق عظيم عميق يفصل القلعة عن جبل المقطم. وقد شاهد ابن جبير هذا الخندق سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م أثناء حفر أسرى الصليبيين له في الصخر بالمعاول، واعتبره من العجائب الباقية[٨٧] وهو خندق عميق ليزداد خطره على العدو الذي يفكر في مهاجمة القلعة من جبل المقطم شرقاً. وكان هذا الخندق يمتد من خارج سور القاهرة الصلاحية شرقاً، خارج باب النصر إلى البرقية وما بعده..

وإذا كنا قد أفضنا في كلامنا عن قلعة صلاح الدين وما قام به قراقوش أثناء بنائها، وبناء الملحقات بها سواء أكان البئر أم الخندق، إلا أن ذلك لا يصرفنا عن كثير من المنشآت الحربية الأخرى التي اضطلع قراقوش ببنائها على عهد صلاح الدين الأيوبي. ومن الآثار الدالة على أهمية قراقوش في قاهرة الأيوبيين، ما ذكره المقريزي من أن هناك ميداناً خاصاً يسمى «ميدان قراقوش» وهو خارج باب الفتوح[٨٨].

ومن المنشآت التي عنى بها قراقوش، وأوردها لنا ابن خلكان أنه بنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام وهي آثار دالة على علو الهمة»[٨٩].

ويؤكد هذا الخبر أبو المحاسن بن تغري بردي بذكره أن قراقوش قد «بنى القنطرة التي عند الأهرام وغير ذلك»[٩٠].

أما المقريزي فيذكر عنها «أن هذه القناطر عمرها الأمير قراقوش الأسدي ٥٦٩هـ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب فهدم الأهرام الصغيرة، وأخذ أحجارها وبنى بها عدة عمارات منها هذه القناطر الواقعة تحت الجسر الموصل بين النيل والأهرام تجاه مصر»[٩١]، وقد أكمل قراقوش دوره مع صلاح الدين في تنفيذ المشروعات العمرانية في سواحل مصر وسيناء وبلاد الشام.

فعندما تكررت إعتداءات السفن الصليبية على تنيس[٩٢] دمياط، وغيرها من الموانىء عهد إلى قراقوش بإحكام تحصينات هذه المناطق وإنشاء القلاع والأبراج، من ذلك ما يرويه المؤرخ أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م إلى دمياط وبصحبته ولداه الأفضل علي والعزيز عثمان، فتفقد تحصينات الميناء ثم رحل إلى الإسكندرية، حيث تفقد سورها الدائري وفحص الزيادات التي كان قد أمر بإنشائها غداة إستيلائه على الحكم، كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول بالإسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه» وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغر وتعمير الأسطول»[٩٣].

وقد إنتدب قراقوش سنة ٥٧٧هـ ١١٨٢م لعمارة قلعة تنيس التي كثيراً ما تعرضت لإعتداءات صليبية حيث قدر لإعادة عمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار عن ثمن أصناف وآجر، فضلاً عن تجديد آلات الدفاع بها»[٩٤].

كما قام في السنة نفسها بترميم سور دمياط، وسد ثلمة حدثت فيه ومن ثم إتقان السلسلة التي كانت قد أقيمت فيها بين البرجين، حيث ذكر أن ما أنفقه على ذلك بلغ ألف ألف دينار، بالإضافة إلى ما قام به بعد ذلك من تحصينات لهذه المدينة سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م حيث قام بحفر خندق بها وعمل جسر عند سلسلة البرج[٩٥]. وقام كذلك ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً «ورتبت فيه الفرسان»[٩٦] لحفظ طريق الصعيد الذي يجلب منها الشب[٩٧] إلى بلاد الفرنج.

وفي عهد العزيز عثمان، وكل إلى قراقوش مهمة جديدة وهي نقل بعض حجارة الأهرام

لتعمير سور دمياط[٩٨]، حيث اقتدى بأبيه في ذلك، كما أن قراقوش قد استخدم حجارة الأهرام من قبل في عملياته الإنشائية.

وثمة قلاع أخرى نفذها قراقوش على عهد صلاح الدين أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر، وقلعة فرعون في جزيرة فرعون في خليج العقبة، والغرض منها منع الخطر الصليبي من الإمتداد إلى البحر الأحمر، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التي استهدفت الحجاز سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م[٩٩].

ولم تكن مشاريع قراقوش ومهامه التنفيذية تتعلق فقط بالمنشآت الحربية بل إن المقريزي يطالعنا بمنشآت أخرى زراعية كان لها أهميتها لشعب مصر عامة، وللدولة الأيوبية خاصة، فقد إهتم بعمارة القناطر والجسور ويذكر «أن صلاح الدين عهد إلى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي بذلك»[١٠٠].

وكانت الجسور في ذلك العصر على نوعين، جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد، ولذا تعهدت الحكومة بإقامتها والإنفاق عليها، وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير.

وكان لقراقوش مكرمة أخرى عرضها لنا ابن خلكان وهي تدل على أنه قام بأعمال كفيلة بدفع الأباطيل والترهات التي شاعت عليه حتى أنه «عمر بالمقس رباطاً، وعلى باب الفتوح بظاهر القلعة خان سبيل، وله وقف كثير ولا يعرف مصرفه»[١٠١]. ولا شك أن شخصية مثل قراقوش أرادت ألا تنصرف بأعمالها الإنسانية للنواحي الحربية والمدنية فقط، وإنما أرادت أن تقدم أعمالاً خيرية إجتماعية تضيف إلى رصيدها درجات، وأوضح القلقشندي أن خان السبيل الذي أنشأه قراقوش كانت تنزل فيه المارة وأبناء السبيل حتى «عرف خطه بها»[١٠٢].

وهذه كلها أعمال خيرية هامة في هذه الفترة للفقراء والمساكين والحجاج وعابري السبيل حتى أن ابن خلكان يصف أعمال قراقوش بأنها «آثار دالة على علو الهمة وأنه كان حسن المقاصد جميل النية»[١٠٣].

الدور السياسي لقراقوش في مصر
على عهد صلاح الدين وخلفائه

لعب قراقوش دوراً سياسياً هاماً لا يقل عن دوره كمنفذ لجميع المنشآت الحربية التي تكلمنا عنها على عهد صلاح الدين، فقد كان صلاح الدين «يعتمد في أحوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه»(١٠٤).

أسندت إلى قراقوش مهمة كبرى وهي النيابة عن صلاح الدين في حكم مصر أثناء غيابه، سواء عند سفره في حملاته ضد الصليبيين إلى الشام أو أثناء حروبه في الشام لجمع كلمة المسلمين بعد وفاة السلطان نور الدين محمود، وحتى أثناء خروجه في مهمات قصيرة «فناب عنه بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه»(١٠٥).

وقد حدث أثناء وزارة صلاح الدين على مصر أن حدث نوع من الإضطراب في العلاقة بينه وبين نور الدين في بلاد الشام، حتى أن صلاح الدين خاف من محاولة نور الدين عزله عن البلاد، كذلك أدرك خطورة موقفه أمام جيوش نور الدين إذا ما حاولت جيوشه دخول مصر، فعزم على الإستيلاء على مناطق أخرى تكون ملاذاً له، ويقيم فيها دولته إذا ما نجح نور الدين في إخراجه من مصر، ففكر أولاً في بلاد النوبة وبعث إليها أخاه توران شاه فاستولى عليها، ولكنه رأى أنها بلاد فقيرة لا يفي بحاجتهم إذا احتاجوه(١٠٦) لذلك قرر أن يبحث عن مكان آخر يكون مأوى لهم «ويكون مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر»(١٠٧).

وكان أن استمع توران شاه لنصيحة عمارة اليمني الشاعر، الذي زين له الإتجاه صوب بلاد اليمن، وفعلاً نفذ ذلك واستولى على اليمن سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م(١٠٨)، وأكمل بعد ذلك الإستيلاء على عدن، وقد استناب عنه بزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ(١٠٩).. إلا أن سيف الدولة هذا تحكم في الأموال والبلاد بعد أن ولاه توران شاه وامتنع عن إرسال الأموال المقررة إلى صلاح الدين، خاصة وأن هذه المنطقة تحصل على أموال طائلة من الضرائب التي تجبى من ميناء عيذاب وغيره(١١٠).

وقد انفرد أبو المحاسن بذكره أن صلاح الدين أراد أن يؤدب سيف الدولة ابن منقذ،

فبعث إليه بهاء الدين قراقوش إلى اليمن، فقبض عليه وحصل منه الأموال ... المقررة عليه[111] وكانت هذه الأموال تهم صلاح الدين في هذه الآونة لتحركاته الشديدة على الجبهتين الصليبية والإسلامية.

وفي نفس العام يطالعنا النويري في «عقد الجمان» بخبر عن أن قراقوش أرسل إلى بلاد المغرب لمحاربة ابن عبد المؤمن ثم عاد إلى مصر»[112]. إلا أن هذا الرأي الذي أورده العيني بالنسبة لتوجه قراقوش إلى بلاد المغرب ربما لا يكون صحيحاً، لأن العيني من المحتمل أنه قد خلط هنا بين بهاء الدين قراقوش وبين شرف الدين التقوى المظفري الذي قام بمغامرات كثيرة في طرابلس الغرب وأفريقيا[113].

وقد شارك قراقوش العزيز عثمان بن صلاح الدين الذي ظل يحكم مصر باسم أبيه، وفي ذلك يذكر أبو المحاسن أنه «ولي سلطنة مصر في حياة والده صورة، ثم تسلطن بعد وفاته إستقلالاً بإتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر»[114].

ويشاركنا المقريزي في هذا الموضوع ويحدثنا عن إحدى المرات التي جلس فيها قراقوش نائباً عن العزيز عثمان عندما خرج إلى مخيمه ببركة الجب، وقد ترك مع قراقوش على مصر ثلاثة عشر أميراً، ونحو سبعمائة فارس[115] كما ناب عن العزيز عثمان عندما خرج سنة ٥٩٠هـ.. قاصداً الشام وشرع في محاصرة الأفضل في دمشق[116].

ولم تكن هذه هي المرات الوحيدة فقط بل قام بالإنابة عن العزيز أيضاً عندما خرج من مصر «عشية الرابع عشر من شوال ومعه الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية وهم لابسون لامة الحرب وكان نائب العزيز بمصر الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي فلم يتغير على العزيز»[117].

وقد لعب قراقوش دوراً كبيراً مع العزيز عثمان خلال صراعه مع أخيه الأفضل فقد ناب عن العزيز عندما خرج من مصر في المرة الثانية للوقوف أمام مطامع أخيه الأفضل سنة ٥٩١هـ وفي المرة الثالثة سنة ٥٩٢هـ عندما خرج مع عمه العادل للإستيلاء على مدينة دمشق[118].

وناب عنه أيضاً في حكم مصر عندما خرج العزيز إلى الإسكندرية في ذي الحجة من عام ٥٩٢هـ[119].

ولم يقل الدور الذي لعبه قراقوش مع العزيز عثمان في ساعة العسر عنها أيام اليسر، فقد منيت مصر بحالة إقتصادية سيئة أفاض المقريزي في ذكرها، وذلك بسبب إنخفاض فيضان النيل عامي ٥٩١ ـ ٥٩٢هـ/ ١١٩٤م، وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء وكثرت الطرحي من الأموات في الطرقات، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس وبقي بمصر من لم يوجد من يكفنه، وأكثرهم يموت جوعاً»[١٢٠].

وقد تم تعيين بهاء الدين قراقوش في هذه الأزمة «شادا على الأموال»[١٢١] التي وضعت في ديوان الزكاة، وكانت تقدر بنحو اثنين وخمسين ألف دينار، وقد طلب من قراقوش ألا يتصرف في هذا المال إلا بعد صدور الأوامر إليه»[١٢٢]. وقد أضيف إليه إلى جانب شد أموال الزكاة وظيفة مالية أخرى وهي «شد أموال الدواوين جميعها» وذلك بعد وفاة متوليها صارم الدين طغلج العزي[١٢٣] وبذلك «كمل شد المال له». وخلال هذه الأزمة كانت البلاد في حاجة إلى شخصية حكيمة تستطيع أن تنفق المال بحذر وبقدر معقول، وأن تراعي حدود الأزمة الموجودة حتى يمكن تخطيها بسلام.

وقد أحدثت هذه الأزمة إرتباكاً مالياً أدى إلى عدم قيامهم بتسليم المرتبات الخاصة بالحاشية في بلاد الشام أيضاً» فقد قبضوا شهراً وكان قد استحق لهم أربعة عشر شهراً»[١٢٤].

لذلك امتنع الجاندارية [١٢٥] عن قبض هذا الشهر، وأرادوا أن يحصلوا على جميع مستحقاتهم.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى العزيز «أمر بإخراجهم إلى المخيم» ومن تقاعد عن الخروج قيده الطواشي قراقوش واستخدمه بالسور»[١٢٦] وبعدها اضطر الجميع إلى الخروج إلى العزيز والإنصياع لأوامره.

ولعل الشدة التي اتبعها قراقوش مع هؤلاء العسكر والأجناد وفي ضبط الأموال ربما كانت سبباً في الشهرة التي لحقت به، ولكن الحقيقة هي أن الحزم ضروري في وقت الفوضى والأزمات.

وقد شاع في هذه الفترة وخلال الأزمة الإقتصادية التي تعرضت لها مصر .. القتل والسرقة في البلاد «بأيدي السكارى وأعلن المنكر بها» فكانوا يسرقون الأمتعة والمأكل والمشرب في

الأسواق «نهاراً نادراً وليلاً راتباً»[١٢٧] لذلك قرر الملك العزيز عثمان تعيين قراقوش للنظر في مظالم الناس، ووضع الحق في نصابه فكان «يجلس بظاهر الدار السلطانية ليؤدي عمله»[١٢٨].

وقد قدم قراقوش للعزيز عثمان خدمات عمرانية وإنشائية تتماثل مع ما قدمه لأبيه الناصر صلاح الدين، حيث احتذى العزيز بأبيه في هدم الأهرام، واستخدام حجاراتها في بناء الأسوار، فقام بنقل الأحجار إلى سور دمياط»[١٢٩] لإنشائه وتعميره ليحمي المدينة من الإعتداءات الصليبية.

ولعل الدور الأخير الذي حدثنا عنه المؤرخون لبهاء الدين قراقوش داخل مصر وقبيل وفاته أنه عين وصياً على الملك محمد بن العزيز عثمان عندما توفي العزيز سنة ٥٩٥هـ وكان قد أوصى قبيل وفاته أن يكون بهاء الدين قراقوش «هو الوصي والمدبر لأمر الأمير القاصر»[١٣٠] بل إنه أصبح أتابكاً له رغم معارضته عمه الملك المؤيد نجم الدين مسعود والملك المسعود، اللذان رغبا في أن تكون الأتابكية لهما، وانقسم الرأي العام بين مؤيد ومعارض لتولية قراقوش.

وهنا بدأت الأقوال تتزايد، وإتهامات الخصوم والأعداء تتردد، ... والحقيقة كما يوضحها ابن خلكان «أن إختيار صلاح الدين وأبنائه من بعده كان عن دراية وحنكة، فلولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه»[١٣١].

• بهاء الدين قراقوش في بلاد الشام •

لم يكن الدور الذي لعبه بهاء الدين قراقوش خاصاً بمصر فقط بل إن الدولة الأيوبية التي حكمت الشام مع مصر كانت في حاجة إلى هذه الشخصية، لكي تقوم بنفس الدور الذي قامت به في مصر.

أطلت الأحداث التاريخية علينا بنجاح صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية تحت الراية الأيوبية، ثم انتصاره على الصليبيين في معركة حطين الشهيرة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ودخوله بيت المقدس والإستيلاء على معظم المدن الساحلية ما عدا ميناء صور.

وقد حاول صلاح الدين الإستيلاء على هذا الميناء الهام إلا أنها استعصت عليه[١٣٢].

خرج صلاح الدين من بيت المقدس متجهاً نحو ميناء عكا للنظر في أحوالها وتفقد تحصيناتها[١٣٣] ويبدو أن صلاح الدين كان يخاف على عكا في ذلك الحين من هجوم صليبي غربي، لما لها من وقع في نفوس المسيحيين بسبب مكانتها الاستراتيجية والتجارية.

وقد قرر صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م «تجديد أسوار عكا وتعلية أبراجها، وعمارة قصورها ودورها»[١٣٤] ويعلق العماد الأصفهاني على ذلك بأنه نظر في أمرها، فوجد «بيوتها متفرقة، وسورها غير معمور، ومعظمها بلا سور، ورأوا أن في إبقائها خطراً وأن في إخلائها ضرراً»[١٣٥] ـ عندئذ رأى صلاح الدين أن المصلحة تقتضي إستدعاء بهاء الدين قراقوش صاحب التاريخ المعماري الحربي الطويل في مصر، وقال «انه الثبت الذي لا يتزلزل والطود الذي لا يتخلخل، بهاء الدين قراقوش الذي يكفل جأشه بما لا تكفل به الجيوش»[١٣٦].

أرسل صلاح الدين إلى قراقوش يستدعيه للقدوم إلى عكا وأمره «أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه عام ٥٨٤هـ وهو بكوكب، ففوض إليه أمر عمارة عكا، وكان معه من مصر أساتيذ العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره»[١٣٧] ويصف العماد الكاتب نفسية قراقوش حينما أسند إليه هذا العمل الهام أنه «كان منشرح الصدر بالعمل، منفسح السر والأمل، مبتهجاً بالأمر، متلهجاً بالشكر»[١٣٨].

ولم يكتف قراقوش بأن أحضر معه الأدوات والعمال والمهندسين فقط، بل تكفل أيضاً بالإنفاق على المشروع مادياً، وكان معه مجموعة من الأسرى، ليساعدوه في عمليات البناء.

وقد خلع عليه صلاح الدين الخلع السنية وخصه بعطايا كثيرة، بعدها إتجه قراقوش من حصن كوكب ـ حيث قابل صلاح الدين ـ إلى عكا لتنفيذ المشروع، وبدأ العمل الفعلي «ونهض بالعبء وحمله، ومشى بكفايته عمله، وشرع في التعمير والتسوير، وتسوير الأمور بحسن التدبير»[١٣٩].

وقد ظل قراقوش يمارس أعماله داخل عكا في الوقت الذي عين فيه صلاح الدين حسام الدين بشارة والياً عليها[١٤٠].

إلا أن الظروف السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي، غيرت من هذا الموقف، وأدت إلى أزمات تعرض لها بهاء الدين قراقوش داخل عكا.

فقد وقع خبر سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين وقع الصاعقة على الغرب الأوربي والبابوية، خاصة وأن أحد الشخصيات الصليبية ويدعى كنراد مونتغرات وصل إلى الشرق واتخذ من صور قاعدة للصليبيين»(١٤١) وبدأ في مراسلة البابوية يطلب منها النجدة السريعة لاستعادة بيت المقدس.

لذلك تحركت أوربا بالحملة الصليبية الثالثة التي تجهزت من أمبراطور ألمانيا الأمبراطور فردريك بربارسا وابنه فردريك السوابي وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا»(١٤٢).

وقد فرضت أوربا لتمويل هذه الحملة ضريبة خاصة أطلقوا عليها «عشور صلاح الدين».

لم يحدث إتفاق بين زعماء هذه الحملة، لذلك خرجت كل فرقة على حدة وقد تعرضت الفرقة الأولى الألمانية لكوارث كثيرة خاصة بعد أن غرق الأمبراطور أثناء عبوره لنهر السالف في آسيا الصغرى، وتفتت شمل جيشه(١٤٣).

أما عن ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس فقد اتجها ناحية صقلية لقضاء فصل الشتاء حتى يستعدا للخروج بالحملة، إلا أن الثابت تاريخياً أن العداء كان كبيراً ومتأصلاً بين العاهلين.

وخلال هذه الفترة وصلت إمدادات إلى الصليبيين في بلاد الشام، فاحتشدوا في مدينة صور، حيث انضموا إلى بقية الصليبيين بزعامة كنراد مونتغرات الذي وصفه ابن شداد بأنه كان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة»(١٤٤).

وقد ساء حظ المسلمين أيضاً عندما قام صلاح الدين بإطلاق سراح ملك بيت المقدس جاي لوزجنان الذي تم أسره بعد معركة حطين بعد أن تعهد بعدم التعرض بأي أذى للمسلمين، إلا أنه لم يف بوعده واتجه إلى صور في الوقت الذي أغلق كنراد أبواب المدينة في وجهه، لذلك جمع جاي عند طرابلس كل ما أمكن من الصليبيين واتجه ناحية عكا في عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م(١٤٥).

كان بهاء الدين قراقوش موجوداً داخل عكا عند وصول هذه القوات إليها بقيادة جاي

لوزجنان الذين قاموا بضرب الحصار على المدينة، في الوقت الذي كان صلاح الدين فيه قد اتجه إلى طبرية ومنها إلى دمشق ليرتب أمور المملكة(١٤٦).

أما عن الحامية الموجودة داخل عكا فقد صنفها العماد بأنها «نحواً من عشرين ألف رجل من أمير ومقدم، وجندي وأسطولي وبحري ومتعيش وتاجر، وبطال وغلمان، ونواب وعمال»(١٤٧).

وصلت أخبار حصار عكا إلى مسامع صلاح الدين لذلك قرر مهاجمتهم، واستقر الرأي على أن يسلك المسلمون طريقاً آخر للوصول إلى عكا غير الطريق الذي سلكه الصليبيون، وأن يكون لقاء الجميع عند عكا(١٤٨).

نجح الصليبيون في الإحاطة بالمدينة إحاطة تامة حتى وصل صلاح الدين ونجح في فتح طريق إليها لإدخال الميرة والنجدة إلى الحامية الإسلامية بالداخل.

وقد أقام جاي لوزجنان معسكره على مقربة من عكا فوق تل المصلبين شرق المدينة، ثم لحق به صلاح الدين بعد ذلك بيومين، فعسكر على مقربة من الصليبيين عند تل كيسان، وتل العياضية(١٤٩).

صمد بهاء الدين قراقوش مع الحامية الإسلامية بالداخل صمود الأبطال وقد أشاد المؤرخون بموقفهم البطولي، خاصة إذا استعرضنا طول مدة الحصار، وضخامة الجيوش الصليبية وتنوعها وتعددها، مما جعل ذلك مضرباً للأمثال.

ولا بد لنا أن نحدد التاريخ الذي بدأ فيه الحصار الصليبي لعكا، وذلك حتى نبين للقارىء مدى الفترة الزمنية التي صمد فيها المحاصرون داخل عكا وكيف كانت قوة العزيمة الإسلامية.

بدأ الحصار في رجب سنة ٥٨٥هـ/ أغسطس ١١٨٩م واستمروا محاصرين حتى دخل عليهم عام ٥٨٦هـ والمسلمون خارجها تحت قيادة صلاح الدين يستميتون في دفع الصليبيين عن المدينة والحامية في الداخل ترفض التسليم وتقاوم، وقد طلب صلاح الدين من زعماء العالم الإسلامي مشاركته في مقاومة هذا الغزو الصليبي الذي فرض حصاره على عكا، وبما أنني لا أؤرخ للحملة الصليبية الثالثة إلا أنني أحب أن أصور فقط المقاومة التي أبداها قراقوش وحامية

المدينة في شهر رجب سنة ٥٨٦هـ نصب الصليبيون المنجنيقات على المدينة، فقامت الحامية في داخل عكا بفتح أبواب المدينة ومهاجمة الصليبيين خارجها ففعلوا ذلك وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب وهاجم المسلمون الصليبيين في خيامهم فاشتغلوا بحماية خيامهم وتركوا المنجنيقات فصوبت إليها شهب الزرافين واشتعلت فيها النيران واحترقت عن آخرها[١٥٠].

وقد بدأت حامية المدينة في حرق أبراج الفرنج الثلاثة وإتلافها ويحكي العماد الأصفهاني كيف نجحت حامية المدينة في إحراق هذه الأبراج ... فيذكر أن هناك شاباً دمشقياً كان موجوداً ضمن الحامية المدافعة عن المدينة وهو علي بن عريف النحاسين[١٥١] بدمشق وكان هذا الشاب «عالماً بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره وتقدير معاييره»[١٥٢] وقد توجه ابن العريف إلى قراقوش يطلب منه الموافقة على أن يستخدم هذه القدور النفطية ضد أبراج الصليبيين «فمضى إلى بهاء الدين قراقوش ـ الأمير ـ وقال قد رأينا ما اعترض من التدبير وما عرض من التقدير، فأفسح لي في رمي هذه القدور، ولعل الله يأتي منها بشفاء الصدور»[١٥٣].

وافق بهاء الدين على طلب ابن العريف، وهذا الخبر يدعونا إلى التساؤل عن دور بهاء الدين قراقوش في قلب عكا، هل كان قائداً للحامية في مواجهة الحصار الصليبي لأنه إن لم يكن هو القائد، فلماذا توجه إليه ابن العريف شخصياً ليأذن له في إطلاق قدوره النفطية على أبراج الصليبيين؟.. إنني أرجح أن قراقوش لم يكن شخصية عادية ضمن رجال الحامية وإنما كان مسئولاً عنها، وهذا سيتضح لنا في تسلسل الأحداث التالية فيا بعد.

قام ابن العريف بعد ذلك بإحراق جميع أبراج الصليبيين الثلاث «فبهت الذي كفر، وأسف على نصبته في نصبها وخمد الكفار بذلك الضرام»[١٥٤]، وقد استفادت الحامية الإسلامية كثيراً بعد استيلائها على ما تبقى من آثار هذه الأبراج، ولم تكن الغنائم التي حصل عليها المسلمون ممثلة فيا تبقى من هذه الأبراج فقط وإنما استولوا على «دبابات كانوا قربوها، ومنجنيقات نصبوها»[١٥٥].

ويضيف العماد الكاتب: مبيناً الجهد الذي بذله الصليبيون في تجهيز هذه الأبراج حيث يقرب من تسعة أشهر في إعدادها، وجعلوا هذه الأبراج أعلى من أبراج سور عكا، وضعف سمكها، وشحنوا بها الرجال المقاتلين[١٥٦].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ان المسلمين دحروا الصليبيين الذين حاولوا الإستيلاء على برج الذبان «وهو الموجود وسط البحر ومبني على الصخر على باب عكا لحراستها»[١٥٧] وقد أحرق المسلمون جميع الصليبيين الموجودين داخل السفن وأفشلوا جميع المحاولات التي قاموا بها بعد ذلك[١٥٨].

ورغم هذا الجهد الذي بذلته الحامية الإسلامية إلا أن مدينة عكا كانت تتعرض لضائقة إقتصادية، ففي سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م وفي شهر أغسطس تمكن صلاح الدين من تهريب أربعمائة غرارة من القمح وقدر من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من بيروت إلى عكا عن طريق البحر[١٥٩] ولكن هذا القدر الضئيل من المعونة كان لا يكفي لسد حاجة أهل المدينة أكثر من بضعة أسابيع قليلة، وفق ما ذكر بهاء الدين قراقوش والي عكا لصلاح الدين[١٦٠] وقد اشتدت الأزمة على المسلمين في الداخل بتوافد أعداد كبيرة مما تبقى من الجيش الألماني الذي قدم مع الحملة الصليبية الثالثة[١٦١] وبعدها وصلت جيوش فيليب أغسطس ملك فرنسا والذي قدم من صقلية ٥٨٧هـ/ ١١٩١م إلى صور ومنها إتجه لينضم إلى الصليبيين المحاصرين بعكا[١٦٢].

ولعل تأخر قوات ريتشارد قلب الأسد ترجع إلى أنه خرج من صقلية إلى جزيرة قبرص لفتحها حتى يضمها إلى أملاكه وبعدها وصلت قواته بعد شهرين من نفس العام لتنضم إلى هذه الجيوش التي تحاصر عكا[١٦٣].

ويؤكد ابن الأثير على أن فيليب أغسطس كان معه ست بطس كبار عظيمة»[١٦٤] أما ريتشارد فقد قدم إليهم في «خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالاً وأموالاً»[١٦٥] أما عن المسلمين الذين شاركوا صلاح الدين فكانت قد وفدت عليهم وفود إسلامية لتشاركهم الجهاد من سنجار والموصل ومصر وغيرها فكانت «العساكر تتوارد والجموع تتوافد»[١٦٦].

والحقيقة أن الصليبيين رغم ما عرف عنهم في هذه الآونة من خلافات سياسية ظاهرة[١٦٧] إلا أنهم تعاونوا وتضافروا في هذه الآونة من أجل هذا الغرض المشترك وهو الإستيلاء على عكا والإنتقام من الحامية الإسلامية التي أرهقتهم طوال هذه السنوات بدءاً من رجب ٥٨٥هـ.

وهنا يسجل التاريخ لحامية عكا موقفاً رائعاً من مواقفها الشهيرة إذ ظلت صامدة في وجه

ذلك الخطر وأظهرت حاميتها تحت قيادة قراقوش شجاعة تسترعي الإعجاب(١٦٨).

بذل صلاح الدين والقوات الإسلامية خارج عكا جهدهم، وزحفوا نحو خنادق العدو ودارت بينهم معارك طويلة وكان صلاح الدين وقتها موجوداً بشفرعم، إلا أن هذه الجهود لم تؤت ثمارها أمام الكثرة العددية والقتالية للصليبيين(١٦٩) حتى أن حامية عكا التي بذلت كل ما في طاقتها لدفع العدوان وللصمود وعدم التسليم وتحمل جميع أنواع الضيق الإقتصادي، اضطرت إلى مراسلة صلاح الدين لإبلاغه بالحالة الراهنة قائلين «إنا قد بلغ العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد(١٧٠) وقد خرج وفد من الحامية الإسلامية تزعمهم الأمير سيف الدين بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب للتفاوض مع الصليبيين على أساس التسليم(١٧١).

والحقيقة التي نود أن نوضحها هنا هي أن المسلمين تصرفوا تصرفاً دبلوماسياً وذلك لأنهم لو استمروا في هذه الظروف لهلكوا وضاع كل من بداخل عكا من المسلمين المحاصرين، لذلك حاول الزعماء في عكا، ومنهم قراقوش أن يحقنوا دماء المسلمين بأمان لا يتعارض مع كرامتهم.

ولعل ما تأكد بعد ذلك يعتبر دليلاً على صحة موقف الحامية الإسلامية فقد رفض فيليب أغسطس الصليبي إقتراح الحامية الإسلامية لذلك قال ابن المشطوب «انا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم»(١٧٢) فصبروا بعد ذلك وصابروا وبسطوا أيديهم في القوم فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الثقوب»(١٧٣).

وبذلك قويت حمية المسلمين داخل عكا وفضلوا الاستشهاد على التسليم المهين.

وقد انقسم الرأي داخل عكا بين مواصلة الصمود وبين التسليم حتى أن اثنين من أمراء الحامية، ومعهم عدد غيرهم خرجوا ليلاً من المدينة وانضموا إلى المسلمين الموجودين خارجها، مما أدى إلى إنخفاض الروح المعنوية للمسلمين بداخل المدينة «فازدادوا وهناً إلى وهنهم وضعفاً إلى ضعفهم»(١٧٤).

وقد ظهرت في المعسكر الصليبي نفس الرغبة في الموافقة على التفاوض مع الحامية ولذلك أرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه ذلك على أن الصليبيين اشتطوا وطلبوا ثمناً باهظاً مقابل السماح لأهل عكا وحاميتها بالخروج سالمين، إذ اشترطوا إرجاع صليب الصلبوت، وإعادة

مملكة بيت المقدس إلى حدودها التي كانت عليها ٥٨٢هـ/ ١١٧٦م إلا أنه كان من المتعذر عملياً تحقيق تلك المطالب، ولا يمكن أن يتخلى صلاح الدين عن المكاسب التي حصل عليها بعد حطين بهذه السهولة[١٧٥].

والحقيقة أن صلاح الدين لم يرض لهذا الرأي الصليبي بل أراد أن يقوي عزيمة المسلمين داخل عكا، وطلب منهم أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها .. بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به[١٧٦]، ووافقت الحامية على غرض صلاح الدين وبدأوا في الإستعداد للخروج وحمل ما يحتاجون إليه وما يملكون، وفي صباح اليوم التالي، وبينما هم عازمون على الخروج فوجئوا بسيطرة الصليبيين على المدينة «ودخولهم المدينة بجدهم وحديدهم»[١٧٧].

وفجأة نجح بعض رجال الحامية في رفع أعلامهم على أسوار المدينة حتى يراها المسلمون بالخارج وفعلاً فوجىء المسلمون «بالرايات الفرنجية على عكا مركوزة وأعطاف أعلامهم مهزوزة»[١٧٨].

وحزن المسلمون حزناً شديداً على سقوط عكا التي صمدت حاميتها سنتين تقاوم الصليبيين.

وقد حاول قراقوش والمشطوب أن ينظما عملية خروج المسلمين من عكا، وألا يعرضوهم للخطر، فقرروا تسليم البلد مقابل تخروج من به من المسلمين «بأموالهم وأنفسهم لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور»[١٧٩] وافق الصليبيون على هذا الإتفاق إلا أنهم عندما دخلوا عكا غدروا بعهدهم ونقضوا وأسروا من كان فيها من المسلمين وكانوا ألوفاً»[١٨٠].

وقد أوضح لنا العماد الكاتب دور قراقوش في هذه المحنة، فقد أرسل إلى صلاح الدين ــ الذي اتجه إلى شفرعم ــ مندوباً من قبله وهو مولاه أقوش، يخبر صلاح الدين «بما قرروه من القطيعة، ويصف كيفية الملمة الفظيعة» وطلب منهم أن يدبروا له نصف المال وجميع الأسارى وصليب الصلبوت قبل نهاية الشهر لأنهم لو تأخروا» بقينا تحت الأسر ونصف المال يصبرون به إلى شهر آخر»[١٨١]. لذلك شرع صلاح الدين في جمع الأموال الخاصة بفدية هؤلاء الأسرى

الذين كان منهم بهاء الدين قراقوش، وعندما حصل مبلغاً كبيراً من المال حاول صلاح الدين أن يضمن أنهم بعد أن يتسلموا الفدية سيسلمون الأسرى أحياء لذلك توقف قليلاً عن دفع المال. مما دفع ريتشارد قلب الأسد إلى القيام بتجميع الأسرى من سكان عكا، وكانوا حوالي ثلاثة آلاف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له (١٨٢).. وكانت مذبحة عظيمة تدل على الخلق الصليبي. ويقدر عدد من قتلوا في هذه المذبحة بمائتين وستين أسيراً.

بقي بهاء الدين قراقوش مع جملة المقدمين أسيراً في يد الصليبيين في الوقت الذي رفض فيه صلاح الدين أن يسلم لهؤلاء الأعداء ـ الذين لا دين لهم ـ الأموال والأسرى الذين طلبوهم. كما احتفظ معه بصليب الصلبوت (١٨٣).

وقد ظل قراقوش أسيراً في يد الفرنج حتى دخل عام ٥٨٨هـ. إلا أن صلاح الدين الذي كان لا يستغني عنه في مملكته قرر أن يدفع له الفدية اللازمة لفدائه. وقد اختلف المؤرخون في قدرها فمنهم من قدرها بعشرة آلاف دينار (١٨٤) ومنهم من قدرها بثلاثين ألف (١٨٥) ومنهم من قدرها بستين ألفاً (١٨٦) وعندما تم تسليم الفدية خرج قراقوش من الأسر فوصل إلى صلاح الدين وهو مقيم بطبرية ومعه الحاشية ومنهم العماد الكاتب الذي ذكر أنهم «تلقوه بالبشر والبر وأقاموا بها ـ طبرية ـ يوم الأربعاء لتوافر الأنداد وتواتر الأنواء» (١٨٧) ولقد أتى قراقوش من السلطان صلاح الدين الألطاف الخفية فكان خروجه من الأسر في يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة «وبعدها مثل في الخدمة السلطانية، ففرح به فرحاً شديداً وكان له حقوق كثيرة على السلطان والمسلمين» (١٨٨) عندئذ توجه قراقوش بصحبة السلطان صلاح الدين صوب دمشق، وظل مقيماً بها حتى، تمكنوا من جمع المال اللازم لفدية من بقي من أسرى عكا المسلمين.

توجه بهاء الدين قراقوش إلى مصر بعد ذلك «وقد صان نفسه ببذل ماله وأخرج ثروته ودخل في إقلاله» (١٨٩).

ولعلها كانت المرة الأخيرة التي تقابل فيها قراقوش مع صلاح الدين إذ أن السلطان صلاح الدين وافته المنية في صفر ٥٨٩هـ/ مارس ١١٩٣م. فخسر المسلمون بوفاته خسارة كبيرة.

أما البقايا الصليبية التي استولت على عكا وارسوف وغيرها من مدن الساحل، فقد اضطرت أن تعقد مع صلاح الدين قبل وفاته صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وعادوا إلى بلادهم لم يحققوا غرضهم في الإستيلاء على بيت المقدس.

عاد بهاء الدين قراقوش إلى مصر ليواصل الدور الذي ذكرناه. مع العزيز عثمان وعمه السلطان العادل أبو بكر.

وقد أورد المقريزي أخباراً عن دور بهاء الدين قراقوش خلال هذه المرحلة التي مر بها البيت الأيوبي، خاصة بعد وفاة العزيز عثمان ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م. فقد ذكرنا أن السلطة آلت إلى ابنه الأكبر ناصر الدين محمد الذي عين قراقوش وصياً عليه إلا أن فخر الدين جهاركسي ـ المسيطر على زمام الأمور في مصر أرسل إلى العادل يستدعيه لحكم مصر[١٩٠] على أن المماليك الأسدية والصالحية ومنهم قراقوش ـ خشوا سيطرة العادل فقرروا استدعاء الملك الأفضل وهو الابن الأكبر لصلاح الدين ـ من حوران وتسليمه مقاليد الأمور[١٩١].

عندما تقلد الأفضل السلطة في مصر، خرج مع أخيه الملك الظاهر صاحب حماه للقضاء على سيادة عمهما الملك العادل والاستيلاء على دمشق.

لذلك استعد العادل وخرج للقائهما في وقت قدمت إليه قوات أبناء أخيه ونجح في التفريق بينهما ولحق بالأفضل إلى مصر، حيث استسلم لعمه ورضي أن يترك له مصر ويتوجه إلى حوران وتولى العادل السلطة في مصر سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م[١٩٢].

ولقد ثبت تاريخياً أن الأفضل عندما خرج من مصر للقاء عمه طلب من قراقوش أن يحفظ القلعة وأن يهتم بحفر ما بقي من سور مصر والقاهرة، وأن يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر ليكون مثل الباشورة[١٩٣] ويستعمل الأبقار فيه ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقدس حتى لا يبقى إلى البلد طريق من أبوابها[١٩٤].

وبهذا نرى أن قراقوش ظل يعطي الدولة الأيوبية، ولم يتقاعس وظل يبذل الجهد حتى آخر أيام حياته، حيث وافته المنية في مستهل رجب من عام ٥٩٧هـ/ وقد أرخ لوفاته معظم المؤرخين المسلمين، وأجمعوا جميعاً على فضله على الإسلام والمسلمين. ودفن في قبره المعروف به بسفح المقطم بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق[١٩٥].

ويؤكد ابن الأثير أن الملك العادل إحتاط على تركته وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل[(١٩١)].

وهنا يسدل الستار عن شخصية قراقوش التي بدأنا بحثنا بكونها أصبحت مضرباً للأمثال على مر العصور، وأصبحت كلمة «حكم قراقوش» كلمة تتناقلها الألسنة والشفاه دون بحث عن الحقيقة.

وبعد ان أنهيت هذا العرض لجميع الايجابيات التي انفرد بها بهاء الدين قراقوش، أرى بعد ذلك أن كل ما نسب اليه من اتهامات ليست إلا أباطيل رددها المغرضون الذين يكرهون العمل الجاد، لأن سمة هذه الشخصية، ما وضح لنا هي العمل الدائم الذي لا يعرف الكلل أو الملل، وحسب هذه الشخصية اننا مازلنا نعايش آثار اعمالها حتى يومنا هذا، فلازالت قلعة صلاح الدين تقف شامخة مؤكدة نفسها عبر التاريخ، لتحدثنا عن الدور الكبير الذي لعبته في حماية مصر من المعتدين، ليس في العصر الايوبي فقط، وإنما برز دورها وتأكد في العصرين المملوكي والعثماني.

ولعل السدود والقناطر والتحصينات والقلاع التي اقامها في مصر خير شاهد على ذلك، الى جانب تحصينات الشام، خاصة قلاع عكا مازالت تحي تاريخ قراقوش...

رحم الله قراقوش، مع دعاء له بالمغفرة عن سيئاته، وبالثواب على حسناته.

•••

الهوامش:

(١) انظر عماد الدين الأصفهاني «الفتح القسي في الفتح القدسي» ص ٢٠٩.
(٢) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩١.
سبط ابن الجوزي «مرآة الزمان» ج٤ ص ٥.
أبو شامة «ذيل الروضتين» المعروف بتراجم رجال القرنين» ص ١٩.
أبو المحاسن بن تغري بردي «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٦.
ابن العماد الحنبلي «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» ج٤ ص ٤.

الذهبي «العبر في خبر من عبر» تحقيق صلاح الدين المنجد ج٤ ص ٢٩٨.
(٣) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج١ ص ١٧٣.
(٤) نظير حسان سعداوي «جيش مصر في أيام صلاح الدين» ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٥) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ ص ٤٥.
الحنبلي «شفاء القلوب في أخبار بني أيوب» تحقيق ناظم رشيد ـ حوادث سنة ٥٩٧هـ.
حسن الباشا «القاهرة ـ تاريخها ـ فنونها ـ آثارها» ص ٤٧٧.
(٦) هو القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن منا زكريا بن أبي قدامة بن مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين وفيه فضائل وله مصنفات عديدة. ت ٦٠٦هـ.
انظر أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٨.
(٧) ذكر ذلك ابن خلكان (وفيات الأعيان) ج٤ ص ٩١.
أبو المحاسن «النجوم» ج٦ ص ١٧٨.
ابن العماد الحنبلي «شفاء القلوب» تحقيق ناظم رشيد حوادث ٥٩٧هـ.
(٨) ابن خلكان «نفسه».
(٩) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٧.
(١٠) أبو شامة «ذيل الروضتين» ص ١٩ حوادث ٥٩٧هـ.
(١١) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٥ ص ٣٤٦ ـ
ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث ٥٥٨هـ.
(١٢) توج عموري ملكاً على بيت المقدس سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م. أنظر
Grousset «Histoire des Croisades» Vol. II p.p. 438 - 442.
(١٣) ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث ٥٦٤هـ.
ابن العديم «زبدة الحلب» ج٢ ص ٣٢٧.
ابن واصل «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ج١ ص ١٦١.
(١٤) ابن واصل «مفرج الكروب» ج١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث ٥٦٤هـ.
(١٥) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج١ ص ٤٠٥.
ابن واصل «مفرج الكروب» ج١ ص ١٦٨.
(١٦) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ١٠٢ حوادث ٥٦٤هـ.
(١٧) عاشور «الحركة الصليبية» ج٢ ص ٧٠٦ ـ ٧٠٧.
(١٨) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٥ ص ٣٥٤.
(١٩) الباز العريني «مصر في عصر الأيوبيين» ص ٣٣.
(٢٠) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٣ ص ٤٩٧.
هناك ترجمة عن عيسى الهكاري.
(٢١) نفسه.
(٢٢) ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث ٥٦٤هـ.
ابن الأثير «التاريخ الباهر» ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

أبو شامة «كتاب الروضتين» ج١ ص ١٦١.

(٢٣) ابن واصل «مفرج الكروب» ج١ ص ١٧٤.

(٢٤) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٣ ص ٤٩٧.

(٢٥) سير مؤتمن الخلافة رجلاً إلى الفرنج جعل كتبه التي معه في نعل خيطت بالجلد مخافة أن يفطن إليها. فسار الرجل إلى البير البيضاء قريباً من بلبيس فإذا بعض أصحاب صلاح الدين هناك، فأنكر أمر الرجل من أنه حمل النعلين في يده، ورآهما ليس فيهما أثر المشي، والرجل رث الهيئة فارتاب وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب بطيهما فحمل الرجل والكتب إلى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت. فإذا الذي كتبها من اليهود الكتاب، فأمر بقتله فاعتصم بالإسلام وأسلم. أنظر المقريزي «الخطط» ج٢ ص٢٨٩.

(٢٦) عاشور «الأيوبيين والمماليك» ص ٢٢.

(٢٧) المقريزي الخطط ج٢ ص ٢٩٠.

(٢٨) ابن واصل «مفرج الكروب» ج١ ص ١٧٤.

(٢٩) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ ص ٤٣.

(٣٠) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ١١٢.

(٣١) ابن الأثير نفسه.

(٣٢) نفسه.

(٣٣) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩١.

(٣٤) ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث سنة ٥٦٩هـ.

(٣٥) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ١٦١.
عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٢٨.

(٣٦) أبو المحاسن «النجوم» ج٦ ص ٨٩ حوادث سنة ٥٧٧هـ.

(٣٧) السيوطي «الفاشوش في أحكام قراقوش» مخطوط بجاميع رقم ١٩٤ طلعت رقم ٤١٦.

(٣٨) السيوطي «الفاشوش» مجاميع ورقة ٣٤.

(٣٩) الفاشوش» مجاميع ورقة ٣٤. طلعت ورقة ١٠٨.

(٤٠) نفسه.

(٤١) نفسه مجاميع ورقة ٣٥ طلعت ١٠٨.

(٤٢) الفاشوش «نفسه».

(٤٣) الفاشوش طلعت ص ١٠٨.

(٤٤) نظير حسان «التاريخ الحربي المصري» ث ١٥ ـ ١٦.

(٤٥) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ٤٠.

(٥٦) المقريزي «الخطط» ج١ ص ٥١، ٥٢.
ابن كثير «البداية والنهاية» ج ١٢ ص ٢٧٠.

(٤٧) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٦٦هـ.

(٤٨) المقريزي «الخطط» ج٢ ص ١١٩٣.

(٤٩) نظير حسان سعداوي «جيش مصر أيام صلاح الدين» ص ٢٥.

(٥٠) بول كازانوفا «تاريخ ووصف قلعة القاهرة» ترجمة أحمد دراج ص ٣٢.

(٥١) المرجع السابق ص ٣٣.
(٥٢) عن سور القاهرة انظر المقريزي «الخطط» ج٢ ص ٧٦، ٧٧.
أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٦.
سبط ابن الجوزي «مرآة الزمان» ج٨ قسم ١.
الحنبلي «شذرات الذهب» ج٤.
الذهبي «العبر في خبر من غبر» ج ٤.
العيني «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» مخطوط ج ١٢.
أبو شامة «الروضتين» ج٢.
ابن واصل «مفرج الكروب» ج ١.
ابن قاضي شهبة «الكواكب الدرية».
عبد الرحمن زكي «قلعة صلاح الدين».
نظير حسان «التاريخ الحربي المصري».
إلى غير ذلك من المراجع...
(٥٣) أبو شامة كتاب الروضتين ج١ ص ١٩٢.
(٥٤) القلقشندي «صبح الأعشى» ج٣ ص ٣٥٠.
(٥٥) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ حوادث سنة ٥٧٢هـ. ويذكر أن السور كان تسعة وعشرين ألف زراع وثلاثمائة وزراعين بزراع العمل».
(٥٦) المقس سميت بذلك لأن صاحب المكس كان يقعد بها. فقيل المكس ثم قلبت الكاف قاف فقيل المقس. انظر المقريزي «الخطط» ج٢ ص ١٢١.
(٥٧) المقريزي «الخطط» ج٢ ص ١٧٦.
(٥٨) كازانوفا «المصدر السابق» ص ٤٤.
(٥٩) حسن الباشا وآخرون «القاهرة تاريخها» ص ٤٧٧.
(٦٠) المرجع السابق ص ٤٧٨.
(٦١) المقريزي «الخطط» ج٢ ص ٧٧.
(٦٢) كازانوفا «المرجع السابق» ص ٤٤.
(٦٣) المقريزي «الخطط» ج٢ ص ١٢١ وما تليها.
(٦٤) يعلق الأستاذ كازانوفا والمترجم الأستاذ الدكتور أحمد دراج على نص المقريزي في هذا الصدد فيقول «يتضح لنا أن قراقوش لم يهدم هذا الجامع ليبني مكانه البرج كما ذكر المؤلف بالمتن، وإنما هو الذي هدم فيما بعد بمناسبة تحديد الجامع لأن المقريزي يعود فيذكر نصاً وهو «ما برح البرج» هنالك إلى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبد الملك المقسي وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون سنة بضع وسبعين وسبعمائة عندما جدد جامع المقس الذي أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله فصار يعرف بجامع المقس هذا إلى اليوم. وما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم إلى ما بعد سنة سبعمائة وسبعين بعدة أعوام.
هذا ويذكر المقريزي في موضع آخر من خططه ج١ ص ٣٧٩، ٣٨. ٣٩ أن البرج بني بجانب جامع المقس فيقول «وبني قراقوش قلعة المقس وهي برج كبير وجعله على النيل بجانب المقس».
(٦٥) نظير سعداوي «التاريخ الحربي المصري» ص ١٠٣ ـ ١٠٨.

(٦٦) المقريزي «الخطط» ج٣ ص ٢٥.

(٦٧) عبد الرحمن فهمي «قلعة الجبل» ص ٤٨٠.

(٦٨) Lane - Poole. «Saladine».

(٦٩) عن قلعة الجبل انظر.
المقريزي «الخطط» ج٣ ص ٣٠.
القلقشندي «صبح الأعشى ج٣ ص ٣٥٦.
عبد اللطيف البغدادي «الإفادة والإعتبار» ص ١٠.
ابن جبير «الرحلة» ص ٢٠.
سبط ابن الجوزي «مرآة الزمان» ج٤ ص ٥٠.
أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٩.
أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٦.
المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ ص ١٥٨.
الذهبي «العبر في خبر من غبر» ج٤ ص ٢٩٨.
ابن واصل «مفرج الكروب» ج٢.
السيوطي «حسن المحاضرة ج٢ ص ١٧١.
نظير سعداوي «التاريخ الحربي المصري» ص ١٠١ ـ ١٠٣ وغيرها من المصادر الإسلامية القديمة والحديثة.

(٧٠) عبد الرحمن فهمي «قلعة الجبل» ص ٤٨١.

(٧١) البغدادي «الإفادة والاعتبار» ص ١٠٠.

(٧٢) المقريزي «الخطط» ج٣ ص ٣٢.

(٧٣) نفسه ص ٣٠ ويذكر أنه هدم الأهرام الصغار التي كانت بالجيزة تجاه مصر. وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة.

(٧٤) يذكر الأستاذ كازانوفا «كان مهرن Mehren » أول من اكتشف هذا النص وقرأه غير أننا ننوه هنا أن هذا الأستاذ العالم على الرغم من منزلته العلمية الكبيرة ومن قدرته التي لا تبارى في قراءة النقوش العربية الصعبة فإنه لم يوفق تماماً في قراءة الجزء الثاني من هذا النقش. وقد قمت شخصياً بإعادة قراءة الجزء التاريخي منها قراءة صحيحة.
كازانوفا «المراجع السابق» ترجمة أحمد دراج ص ٧١.

(٧٥) سورة الفاتحة ايه ١ ـ ٣.

(٧٦) كلمة العرمة تعني الجسر أو الحاجز الذي يعترض السيل.

(٧٧) كازانوفا ص ٧٢.
عبد الرحمن زكي «قلعة صلاح الدين» ص ٣٤.
عبد الرحمن فهمي «قلعة الجبل» ص ٤٨١.

(٧٨) ابن جبير «الرحلة» تحقيق حسين نصار ص ٢٠.

(٧٩) المقريزي «الخطط» ج٣ ص ٣٢.

(٨٠) نفسه.

(٨١) المقريزي «السلوك» ج١ قسم١ حوادث سنة ٥٧٢هـ.

(٨٢) عبد الرحمن زكي «موسوعة القاهرة» ص ٣٧.
عبد الرحمن فهمي «قلعة الجبل» ص ٤٨٣.
لا بد أن نرى هنا دقة مصمم البئر في بناء السرداب الذي يوصل المياه إلى المحاصرين في القلعة في وقت الحروب وما زلت أعزو ذلك إلى مهارة المنفذ بهاء الدين قراقوش.

(٨٣) القلقشندي «صبح الأعشى» ج٣ ص ٣٧٢.

(٨٤) عبد الرحمن فهمي «نقلاً عن» كروريل في كتابه مصادر تخطيط مدارس القاهرة الصليبي».

(٨٥) كازانوفا «المرجع السابق» ص ٨٤.

(٨٦) كازانوفا «المرجع السابق» ص ٨٧.

(٨٧) ابن جبير «الرحلة» ص ٢٠.

(٨٨) المقريزي «الخطط» ج٣ ص ١٩.

(٨٩) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩١.

(٩٠) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ حوادث ٥٩٧هـ.

(٩١) المقريزي «الخطط» ج٢ ص ١٥١.

(٩٢) تنيس بلده جزيرة صغيرة اسمها تنيس أيضاً واقعة بالناحية الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة قرب بور سعيد الحالية.
ياقوت الحموي «معجم البلدان» ج١ ص ٢٨٨

(٩٣) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩

(٩٤) المقريزي «الخطط» ج١ ص ١٨١.

(٩٥) نفسه ج٢ ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٩٦) نفسه ج١ ص ٧٢.

(٩٧) الشب حجر معروف يحتاج إليه في أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر وللروم فيه الرغبة بمقدار ما يجدون فيه من الفائدة.
انظر «ابن مماتي» «قوانين الدواوين» ص ٣٢٨ تحقيق عزيز سوريال.

(٩٨) المقريزي «السلوك» ج١ قسم١ حوادث سنة ٥٩٢هـ

(٩٩) عاشور «الأيوبيين والمماليك» ص ٨٦.

(١٠٠) المقريزي «الخطط» ج ص .

(١٠١) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٠

(١٠٢) القلقشندي «صبح الأعشى» ج٣ ص ٣٥٦.

(١٠٣) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٠

(١٠٤) ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث ٥٩٨هـ.

(١٠٥) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٢.

(١٠٦) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ١١٨ حوادث ٥٦٨هـ.

(١٠٧) نفسه حوادث سنة ٥٦٩هـ

(١٠٨) ابن واصل «مفرج الكروب» ج١ ص ٢٨٣.

(١٠٩) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ٦٩.

(١١٠) حسنين ربيع «البحر الأحمر في العصر الأيوبي» ندوة البحر الأحمر ١٩٧٩م. ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(١١١) أبو المحاسن «النجوم» ج٦ ص ٨٩ حوادث ٥٧٧هـ

(١١٢) العيني «عقد الجمانة» مخطوط حوادث ٥٧٧هـ.

(١١٣) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٣ ص ٤٩٧.

(١١٤) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٢٠.

(١١٥) المقريزي «السلوك» حوادث سنة ٥٩٠هـ.

(١١٦) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٩٠هـ

(١١٧) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ حوادث سنة ٥٩١هـ.

(١١٨) عن ذلك انظر .. ابن الأثير «الكامل» ج٦ حوادث ٥٩٠ ـ ٥٩٢هـ
ابن واصل «مفرج الكروب حوادث ٥٩٠ ـ ٥٩٢هـ.

(١١٩) المقريزي «السلوك» حوادث سنة ٥٩٢هـ.

(١٢٠) المقريزي «نفسه» ص ١٣٠.

(١٢١) الشاد هو المفتش. يقال شاد الدواوين أي الذي يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها. ومثله شاد الأموال. والجوالي وشاد الزكاة. وتسمى العملية شد فيقال شد الدواوين أي التفتيش عليها.
انظر زيادة المقريزي «السلوك» ج١ ص ١٠٥ حاشية ٢

(١٢٢) المقريزي «نفسه» حوادث سنة ٥٩٢هـ.

(١٢٣) المقريزي «نفسه».

(١٢٤) نفسه.

(١٢٥) الجاندار هو الأمير الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية. ويدخل أمامهم إلى الديوان.
القلقشندي «صبح الأعشى» ح٤ ص ٢٠. ج٥ ص ٤٥٩.

(١٢٦) المقريزي «السلوك» ص ١٣٣ حوادث سنة ٥٩٢هـ

(١٢٧) نفسه

(١٢٨) المقريزي «نفسه».

(١٢٩) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ حوادث سنة ٥٩٢هـ.
«الخطط» ج ٢ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(١٣٠) المقريزي «السلوك» حوادث سنة ٥٩٥هـ.

(١٣١) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٢.

(١٣٢) ابن شداد «النوادر السلطانية» ص ٨٠.

(١٣٣) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ٩١.

(١٣٤) ابن أيبك الدواداري» الدر المطلوب في أخبار بني أيوب» ص ٩٨ ـ ٩٩.

(١٣٥) العماد الأصفهاني «الفتح القسي في الفتح القسي» ص ٢٠٨.

(١٣٦) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٢٠٩.

(١٣٧) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ١٢٥.

(١٣٨) العماد الأصفهاني نفسه ص ٢٠٩.

(١٣٩) نفسه ص ٢١٠.

(١٤٠) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٠٩ حوادث سنة ٥٨٥هـ وهناك رأي آخر للدكتور سعيد عاشور بأن قراقوش كان هو الوالي على المدينة انظر عاشور «الحركة الصليبية» ج٢ ص ٨٢٨.

(١٤١) Grousset «Op-cit» Vol. III p. 5
(١٤٢) عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٤٤.
(١٤٣) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢٠٧ حوادث سنة ٥٨٦هـ.
أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ١٥٦.
(١٤٤) ابن شداد «النوادر» ص ١٥٣.
(١٤٥) عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٢٢
(١٤٦) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٢٧٦.
(١٤٧) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ١٨١ نقلاً عن العماد الكاتب.
(١٤٨) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢٠١ حوادث ٥٨٥هـ.
(١٤٩) عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٢٣.
(١٥٠) ابن شداد «النوادر السلطانية» ص ١٣٤.
(١٥١) نقيب النحاسين.
(١٥٢) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٣٧٠.
(١٥٣) وكانت الطريقة تتلخص في خلط بعض المواد الكيماوية بعضها ببعض مع خلطها بالنفط في قدور من النحاس ثم رميها على الأبراج.
(١٥٤) العماد «نفسه» ص ٣٧٢.
(١٥٥) نفسه ص ٣٧٣.
(١٥٦) نفسه
(١٥٧) ابن شداد «النوادر» ص ١٣٤
(١٥٨) نفسه ص ١٤٠ ـ ١٤٢.
ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢٠٨ ـ ٢١٠.
(١٥٩) عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٢٨.
(١٦٠) عاشور المرجع السابق.
(٦١) Setton: «A history of the Crusades» Vol. II p. 66
(١٦٢) Grousset «Op-cit» Vol. III p. 45
(١٦٣) Runciman «Op-cit» Vol. II p. 49
(١٦٤) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢١٣
(١٦٥) ابن الأثير «نفسه» حوادث سنة ٥٨٧هـ
والبطسة نوع من السفن الحربية كانت تتسع لعدد كبير من الجند يصل إلى نحو من سبعمائة.
انظر النويري «نهاية الأرب في فنون الأدب» ج٢٩ ص ٣٢٣أ.
(٦٦) ابن الأثير الكامل ص ٢١٣
(١٦٧) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٤٩٦
عن الصراع بين هذه القوى انظر
عاشور «أوربا في العصور الوسطى» ج١ ص ٢٥٤، ص ٤٨٦.
(١٦٨) عاشور «الحركة» ج٢ ص ٨٣٢.

(١٦٩) أبو شامة «كتاب الروضتين» جـ٢ ص ١٧٨.
(١٧٠) ابن شداد «النوادر» ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(١٧١) تم إختيار سيف الدين المشطوب من بين الحامية الموجودة داخل عكا لأنه أمثلهم وأكبرهم سناً.
(١٧٢) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢١٤ حوادث سنة ٥٨٧هـ.
(١٧٣) ابن شداد «النوادر» ص ١٦٨.
(١٧٤) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ١٨٧.
(١٧٥) ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث سنة ٥٨٧هـ.
(١٧٦) عاشور «الحركة» ص ٨٤.
(١٧٧) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢١٤ حوادث سنة ٥٨٧هـ.
نفسه.
ابن واصل «مفرج الكروب» ج٢ ص ٣٥٨.
(١٧٨) العماد (الفتح القسي) ص ٥١٣.
(١٧٩) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢١٤ حوادث ٥٨٧هـ.
(١٨٠) الماركيس صاحب صور هوكزاد مونتفرات.
(١٨١) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٥١٤.
(١٨٢) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢١٥ حوادث ٥٨٧.
ابن شداد «النوادر» ص ١٧٢.
ابن واصل «مفرج الكروب» ج٢ ص ٣٦٣.
(١٨٣) صليب الصلبوت هو الذي يزعم المسيحيون أن المسيح قد صلب عليه قبل الصعود إلى السماء.
(١٨٤) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٢.
أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٧٨.
ابن الأثير «الكامل» ج٩ حوادث سنة ٥٩٧هـ.
(١٨٥) ابن شداد «سيرة صلاح الدين» ص ٢٣٩.
(١٨٦) الحنبلي «شفاء القلوب في أخبار بني أيوب».
تحقيق ناظم رشيد حوادث سنة ٥٩٧هـ.
(١٨٧) العماد «الفتح القسي» ص ٦١٤.
(١٨٨) ابن شداد «النوادر» ص ٢٣٩
(١٨٩) العماد الأصفهاني «الفتح القسي» ص ٦٢٢.
(١٩٠) ابن الأثير «الكامل» حوادث سنة ٥٩٥هـ.
المقريزي «السلوك» حوادث سنة ٥٩٥هـ.
(١٩١) أبو شامة «كتاب الروضتين» ج٢ ص ٢٣٥.
(١٩٢) أبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج٦ ص ١٤٧.
(١٩٣) الباشورة سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرجال والسهام إلى مواضع المحاربين. وتجمع على بواشير

(١٩٤) المقريزي «السلوك» ج١ قسم ١ حوادث ٥٩٦هـ.

(١٩٥) ابن خلكان «وفيات الأعيان» ج٤ ص ٩٢.
(١٩٦) ابن الأثير «الكامل» ج٩ ص ٢٥٦.

قائمة المصادر والمراجع

١ - **ابن الأثير** «أبي الحسن علي بن أبي الكرم» ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م.
الكامل في التاريخ ج - ٩ - بيروت ١٩٨٠م.
التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية.
تحقيق عبد القادر طليمات - القاهرة ١٩٦٣م.

٢ - **ابن جبير** «محمد بن أحمد» ت ٦١٤هـ/١٢١٧م.
الرحلة «رحلة بن جبير».
تحقيق حسين نصار - القاهرة ١٩٥٥م.

٣ - **ابن الجوزي** «سبط» شمس الدين أبي المظفر يوسف قزاوغلي التركي.
ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.
ج ٨ قسم ١ حيدر آباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٤ - **ابن خلكان** «شمس الدين أحمد بن محمد» ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» ج ٣ ، ج ٤.
تحقيق إحسان عباس. ط بيروت ١٩٧٢م.

٥ - **ابن شداد** «بهاء الدين يوسف بن رافع» ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م.
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.
تحقيق جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٤م.

٦ - **ابن قاضي شهبة** «بدر الدين محمد بن أبي بكر» ت ٧٧٤هـ ١٣٧٢م.
الكواكب الدرية في السيرة النورية.
تحقيق محمود زايد - بيروت ١٩٧١م.

٧ - **ابن مماتي** «الأسعد بن مماتي» ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م.
«قوانين الدواوين».
تحقيق عزيز سوريال عطية - القاهرة ١٩٤٣م.

٨ - **ابن واصل** «جمال الدين محمد بن سالم» ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م.
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج١، ج٢.
تحقيق جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧م.

٩ - **أبو شامة** «شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي».
ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م.
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - الجزء الأول قسمان.
تحقيق محمد حلمي أحمد - القاهرة ١٩٦٢م.
الذيل على الروضتين تحقيق عزت العطار.
القاهرة ١٩٤٧م.

١٠ - **أبو المحاسن** «جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي»
ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ج ٦.
القاهرة ١٩٣٥م.

١١ - **أحمد فكري** مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ العصر الأيوبي.
القاهرة ١٩٦٩م.

١٢ - **البغدادي** «عبد اللطيف» ٦٢٩هـ/١٢٣١م.
الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ط أوربا وطبعة موجزة «المجلة الجديدة» القاهرة.

١٣ - **بول كازانوفا** «تاريخ ووصف قلعة القاهرة» ترجمة أحمد دراج.
القاهرة ١٩٧٤م.

١٤ - **حسن الباشا وآخرون** «القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها».
القاهرة ١٩٧٠م.

١٥ - **حسنين ربيع** «البحر الأحمر في العصر الأيوبي».
ندوة تاريخ البحر الأحمر - جامعة عين شمس ١٩٧٦م.

١٦ - **الحنبلي** «أحمد بن إبراهيم نصرالله.
شفاء القلوب في أخبار بني أيوب».
تحقيق ناظم رشيد - بغداد ١٩٧٨م.

١٧ـ **الحنبلي** «ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي» ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م.
شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ج ٤.
القاهرة ١٩٣١م.

١٨ـ **الذهبي** «الحافظ محمد أحمد» ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م.
العبر في خبر من غبر ج ٤.
تحقيق صلاح الدين المنجد ـ الكويت ١٩٦٣م.

١٩ـ **سعيد عاشور** ـ الأيوبيين والماليك ط٢ القاهرة ١٩٧٦م.
ـ أوربا العصور الوسطى ج١ القاهرة ١٩٦٤م.
ـ الحركة الصليبية ج٢ ط٣ القاهرة ١٩٧٦م.

٢٠ـ **السيد الباز العريني** «مصر في عصر الأيوبيين» القاهرة ١٩٦٠م.

٢١ـ **السيوطي** «الحافظ جلال الدين عبد الرحمن» ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.
ـ الفاشوش في أحكام قراقوش.
مخطوط ٤١٦ طلعت. دار الكتب المصرية.
١٩٤ مجاميع دار الكتب المصرية.
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ٢.
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم.
القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

٢٢ـ **عبد الرحمن زكي** ـ قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ـ القاهرة ١٩٧١م.
ـ موسوعة القاهرة في ألف عام ـ القاهرة ١٩٦٩م.

٢٣ـ **عفاف صبره** ـ دراسات في تاريخ الحروب الصليبية ـ القاهرة ١٩٨٥م.
ـ العلاقات بين الشرق والغرب ـ القاهرة ١٩٨٣م.

٢٤ـ **العماد الأصفهاني** «أبو عبدالله محمد» ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م.
ـ الفتح القسي في الفتح القدسي».
تحقيق وشرح محمد محمود صبح ـ القاهرة ١٩٦٥م.

٢٥ـ **العيني** «بدر الدين محمد بن أحمد بن موسى» ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م.
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ج ١٢.
مخطوط دار الكتب الوطنية المصرية رقم ٥٨٤.

٢٦ـ القلقشندي «أحمد بن علي» ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م.
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج٣. ج٥. ج١٣.
القاهرة سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢م.
٢٧ـ المقريزي «أحمد بن علي» ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م.
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ١.
تحقيق زيادة القاهرة ١٩٥٦م.
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
القاهرة ثلاثة أجزاء عن طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.
ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة.
نشر محمد مصطفى زياده. وجمال الدين الشيال.
القاهرة ١٩٤٠م.
٢٨ـ نظير حسان سعداوي
ـ جيش مصر أيام صلاح الدين ـ القاهرة ١٩٥٩م.
ـ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ـ القاهرة ١٩٦١م.
ـ التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ـ القاهرة ١٩٥٧م.
٢٩ـ ياقوت الحموي «شهاب الدين أبو عبدالله الحموي»
ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.
«معجم البلدان» ـ ١٠ أجزاء القاهرة ١٩٠٦م.

1) Dozzy. R.
Supplement aux Dictionnaires Arabes.
2 Vols. Paris 1927.
2) Ehrenkreutz A.E.
Saladine, New York 1972.
3) Grousset. «R»
Histoire des Croisades et du Royaume
France de Jerusalem.
3 Vols Paris 1936
4) lane Poole. «S»
Saladine, London, 1899
5) Runciman. «S»
A history of the crusades
3 Vols. cam 1957.
6) Setton. «K» M.
A history of the crusades.,
III Vol. wisconsin 1969-1975